

القرآن في شهر القرآن

الدكتور عبد الحلیم محمود

(الطبعة الثامنة)



دار المحارفة
تأسست ١٨٩٠



رئيس مجلس الإدارة
د. حسن أبو طالب

سلسلة كتب ثقافية

بطاقة فهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

محمود عبد الحليم

القران في شهر القران

تأليف : عبد الحليم محمود - ط ٨ - القاهرة : دار المعارف، ٢٠١٤

١٧٦ ص، ١٩.٥ سم.

تدمك ٥ - ٨٠٠٦ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - القران - فضاءل.

٢ - الادعية والأوراد.

() العنوان.

ديوى ٢٢٩٢

١ / ٢٠١٤ / ٢٤

رقم الإيداع ٢٠١٤ / ١٩٨ - ٢

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

قال تعالى :

« الْم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

مقدمة الكتاب

إن الحديث في القرآن لا ينتهي ، إنه لا يحده فكر بشري ولا يقيده تصور إنساني . ولقد كان من الحكمة العميقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأخذ في تفسيره كلمة كلمة وآية آية وإنما فسر كلمة من هنا وآية من هناك . ولم يقل صلوات الله وسلامه عليه إن تفسيره هو نفسه - رسول الله - يحد المعنى ويحدده ويقيده . وفسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلوكه أكثر مما فسره بقوله المباشر في معناه ، لقد كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن ، فكان خلقه تفسيراً للقرآن ومن هنا كان قوله :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا » .

وفسره صلى الله عليه وسلم بأحاديثه الكثيرة - عن طريق غير مباشر -
أكثر مما فسره بطريق مباشر .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحلى بالقرآن فكان سلوكه
تفسيراً له وإذا كان قد امتزج بالقرآن فكان نطقه - وما ينطق عن الهوى -
تفسيراً له ، وإذا كانت حياته كلها سلباً وإيجاباً ، قولاً وصمتاً حركة وسكوناً
إنما هي تفسير للقرآن . فإن الصحابة ساروا على منواله بقدر استطاعتهم
ولم يحاول أحد منهم أن يفسر القرآن كلمة كلمة وآية آية وإنما حاولوا أن
يستهدوا بالقرآن وأن يكون القرآن - ما استطاعوا - خلقهم .

لقد كانوا يعملون بالقرآن ، ويتخذونه إماماً وقائداً ، إنهم لم يتخذوه

دراسة نظرية وإنما اتخذوه هداية عملية حتى إن بعضهم ما كان يجاوز في الحفظ السورة إلى غيرها إلا إذا حقق ما فيها من أوامر وانتهى عما فيها من نواه ، لقد اتخذوه دستورهم في الحياة وأقاموه إمامهم في حياتهم ، لقد طبقوا قواعده والتزموا مبادئه : من جهاد ، وضرب في الحياة ، وصدق في القول ، وإحسان في العمل ، وعبودية أسمى وأقوى وأخشع ما تكون العبودية لله سبحانه وحده وحققوا بذلك الأمة التي أحباها الله ورسوله ، ولقد ربي القرآن على مر العصور رجالات اتخذوه إماماً وهدايا فكانوا مثلاً عالياً في الإنسانية لا يدانيهم غيرهم من سائر الدول . ولا يزال القرآن للآن هو القرآن الذي وحد قبائل ، وجمع أشتاتاً ، وألف بين قلوب ، وكون أمة ، وأرسى قواعد حضارة نعتز بها لأنها حضارة بنيت على التقوى من أول يوم .

والآن ونحن في شرقنا العربي وفي عالمنا الإسلامي في سبيل النهوض والتطور والبعث والرقى في حاجة أمس ما تكون الحاجة ، إلى الاسترشاد بمصدر الهداية ومنبع القوة :

ومن أجل ذلك فإنه حينما طلب إلى أن أؤلف كتاباً لينشر في شهر رمضان المبارك اتجه فكري مباشرة إلى القرآن . ولكن المشكلة بدأت أيضاً مباشرة في صورة سؤال هو : عن أية زاوية من زوايا القرآن أتحدث ؟ وبمجرد أن بدأت التفكير في الموضوع بدت أمامي الآية القرآنية الكريمة :

« أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ »

لقد بدت أمامي كروضة بانعة يقتطف الإنسان منها أجمل الزهور ويشم من غيرها أزكى الروائح ، وبدت أمامي كأنها منهج حياة ، وبدت أمامي موجية موجهة . فسرت في البحث مستلهماً - على الخصوص - هذه الآية الكريمة .

إنها أول آية نزلت في القرآن الكريم ، وهي ثرية بالمعاني . وعلى الرغم من أنها كانت جوهر موضوع الكتاب في ألفاظها وفي جوها فإنني لم أقل عنها كل ما يمكن أن يقال . ولكني وأنا أسير في جوها أحببت أن يكون الحديث خطوة في سبيل إيضاح الطريق إلى النهج على سنن الصدر الأول في الاستهداء بالقرآن عملياً ، وفي الأخذ في الناحية العملية عبادة كانت أو ضرباً في الأرض . ولقد استرشدت بالآية الكريمة في عدة مجالات منها :

مجال العلم وهو أساس الحضارة والبعث والنهضة ، ولن تهض أمة إذا لم تتخذ العلم أساساً من أسس نهضتها : العلم بأوسع وأشمل ما تدل عليه كلمة العلم .

واسترشدت بها في مجال الغزو الفكري وموقف الإسلام منه وذلك لترجع إلى النبع الصافي مصدر حضارتنا وأساس هدايتنا .

ولما كان الكتاب عن القرآن الكريم وكان الحديث عن أول آية نزلت منه فقد كان من الضروري أن نتحدث عن وصف القرآن وعن فضله ، ولقد استفضت في بيان أوصاف القرآن من القرآن نفسه فتعبير القرآن عن القرآن كله توجيه للمسلم وبيان له عن مصدر هدايته ، ووصف صادق لكتاب النور والهداية .

وشهر رمضان المبارك : شهر الذكر والدعاء ، ولذلك استفضنا في موضوع الذكر وموضوع الدعاء مستندين في كل منهما إلى القرآن على الخصوص ، وإذا كنت قد استفضت في موضوعي الذكر والدعاء فذلك أيضاً لأنهما تعبيران من أهم وأصدق مظاهر التعبير عن العبودية لمالك الملك ، ونحن في عصرنا الراهن أشد ما نكون في حاجة لتحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى فإن فيها الاستغناء به عن سواه . فاذا اتجه المسلم الصادق إلى الله فقد استغنى

به واعتز به ومن كان لله كان الله له : أليس الله يكاف عبده ؟ وإذا حقق المسلم العبودية لله فإن الله يتكفل بنصره .

« إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ »

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ »

وكان ختام البحث عن توجيهات القرآن الكريم في النصر بإذن الله .
وإنا لندعو الله جلت قدرته وعظم سلطانه أن يوجه الأمة الإسلامية الوجهة التي ترضيه ، وأن يعدها بمدد من عنده ، وأن يكتب لها النصر ، وأن يعيدها مجددا السابق .

إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

الفصل الأول

اِفْتَلْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

المنهج القرآني لحياة المسلم

• كيف كان بدء الوحي ؟

عن عائشة أم المؤمنين - فيما رواه البخاري وغيره - أنها قالت :
« أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي : الرؤيا
الصالحة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » .
ثم حجب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو
التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك . ثم يرجع
إلى خديجة فيتزود لمثلها .

حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ،
قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ،
فقال : اقرأ ، قلت ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد
ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة
ثم أرسلني فقال :

« اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اِقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى فقالت له خديجة : يا بن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجى هم ؟ قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ .
ثم لم ينشب ورقة أن توفي وقتر الوحي .

• هذه الليلة:

هذه الليلة المباركة هي التي سماها الله ليلة القدر فقال سبحانه وتعالى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ »

ثم أخذ الله سبحانه وتعالى بين فضلها فقال :

« وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ

وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ » .

ووصفها الله بأنها مباركة فقال سبحانه وتعالى :

« حَمِّ ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ،
فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، رَحْمَةً مِنْ
رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُومُ
مُؤْمِنِينَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ » .

أول الدخان .

وأخبر الله سبحانه وتعالى أن هذه الليلة المباركة في شهر رمضان ،

فقال :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ
الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » .

عن هذه الليلة المباركة نأخذ في الحديث مبتدئين بأسمى أحداثها ،

وأسمى هذه الأحداث هو الوحي الذي يتمثل في قوله تعالى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » .

• اقرأ :

وهذه المادة الأولى من الدستور الإسلامي غنية بالمعاني ، ثرية

بالتوجيهات ، ومعانيها وتوجيهاتها ليست آتية من ألفاظها فحسب وإنما

هي آتية أيضاً من الجوالعام الذي تشير إليه أو الذي توحى به . فهي تبتدئ

أولاً بكلمة : اقرأ .

إنها تأمر بالقراءة التي هي من أهم وسائل العلم والمعرفة إن لم تكن أهمها ،

ويتسم الإسلام لأول لحظة زمنية من حياته ولأول كلمة فيه بسمه العلم ،

وتتوالى بعد ذلك الآيات موضحة ومؤكدة هذه السمة جاعلة منها طابعاً وشعاراً .

وإذا كانت الآيات الأولى التي نزلت من القرآن في الليلة المباركة قد أمرت بالقراءة مرتين ، وذكرت مادة العلم ثلاث مرات ، وذكرت القلم ، فإن الآيات التي نزلت بعد « قرة » الوحي^(١) بدأت بحرف من حروف الهجاء : « ن » ، وتضمنت أول قسم أقسم به الله سبحانه في القرآن وكان هذا القسم بالقلم : « ن ، والقلم وما يسطرون » .

ثم تناول الآيات القرآنية في فضل العلم ، وفي الحث على التعلم وفي تمجيد العلماء .

لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلجأ إلى الله متضرعاً داعياً أن يزيده الله علماً : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » .

وهذا الدعاء الذي يتجه به الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الله إنما هو من أروع الأمثلة في التربية . وذلك أنه صادر من الإنسان الكامل ، إنه صادر من رسول الله أكمل الرسل بين للأمم أن الإنسان ، مهما بلغت به المنزلة، يتقصه الازدياد من العلم . وإذا كان الرسول - أكمل المخلوقات - يرجو أن يزيده الله علماً فما بالك بأفراد الأمة ، وتصور زعم أمة تكبره وتجله وتقده يعلن في صراحة لا لبس فيها أنه ما زال - ولن يزال - بحاجة إلى الزيادة في العلم : إنه يدفع الأمة بذلك - الأمة التي تقده - إلى السير على منواله فترجو أن يزيدها الله علماً .

وإن أسمى شيء في الحياة من غير شك إنما هو الإيمان ، إنه في الدرجة المطلقة من السموياتي : مع الإيمان تالياً للإيمان مباشرة : العلم .

والعلم في النظرة الإسلامية من وسائل تثبيت الإيمان ، وزيادته ، وتقويته « ذلك أن العلماء في الأعراف الإسلامية هم أشد الناس خشية

(١) في حديث كيف كان بدء الوحي وردت كلمة : « وقر الوحي » .

لله سبحانه ، يقول تعالى :

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

ولا يصل إلى ذروة الإيمان - الذروة المطلقة - من بنى آدم إلا العلماء :
إن الله سبحانه وتعالى يقربهم به وبملائكته في شهادة التوحيد ، وشهادة التوحيد
هي ذروة سنام الإيمان ، إن : أشهد أن لا إله إلا الله ، هي قمة الإيمان ،
وهذه القمة لا يرقى إليها إلا العلماء ، يقول سبحانه :

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ » .

هذه هي النظرة القرآنية للعلم الذي اتسم به الإسلام منذ « اقرأ » .

* العلم في الإسلام :

وقد يظن بعض الناس أن العلم الذي عناه القرآن إنما هو العلم بالدين
فحسب وليس الأمر كذلك . فإن الله سبحانه وتعالى حينما ذكر أن العلماء
هم الذين يخشون الله أحاط الآية القرآنية بجو يمنع أن تحدد العلم بالعلم
الديني فقط يقول سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ،
وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ، وَمِنَ النَّاسِ
وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » . فاطر : ٢٧ - ٢٨ .

ثم إن الله سبحانه وتعالى قد امتن علينا بأن سخر لنا البحار والأنهار
والجبال وسخر لنا الشمس والقمر والكواكب . لقد سخر لنا الكون كله .

وهذا الامتنان من الله سبحانه وتعالى علينا بالتسخير إنما هو من أجل
أن نصل إلى السيطرة عليها باكتشاف القوانين التي وضعها الله سبحانه

وتعالى لتسخيرها . يقول سبحانه :

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » ٣٢ - ٣٣ إبراهيم .

وقال تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ » ٢٠ لقمان .

وقال تعالى : « أَلَمْ تَرَأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » ٦٥ الحج .

وقال تعالى : « اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ١٢ - ١٣ الجاثية .

إن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان للخلافة الأرضية . ومنحه العقل يكتشف به ما يبهي له هذه الخلافة في العالم المادى ، العالم المحسوس ، ولقد سير هذا العالم المادى بنواميس محكمة مطردة وعلى الإنسان أن يكتشف هذه النواميس ليطوع الكون له ، وعليه أن يكتشف هذه النواميس كمظاهر لعظمة الله وجلاله فتكون من أسباب خشيته سبحانه .

إن عالم التشريح يرى الدقة في الصنع والإحكام في التكوين ويرى هذا الإبداع البديع في التركيب الإنساني والحيوانى والنباتى فيختر ساجداً لمبدع العالم الذى أحسن كل شىء صنعا .

وإن عالم الفلك يشاهد بمرصده ويتصور بذهنه هذه السعة الشاسعة المذهلة في تصورها ، ويعلم أن كل صغير وكبير فيها يسير في تقدير دقيق :
 «لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» يرى ذلك فيخرساجداً للمبدع . ويردد مع القرآن الكريم :

«تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ . الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ» . أول سورة الملك .

أرأيت إلى غزو الفضاء والوصول إلى الكواكب ، واكتشاف نواميس الكون في أعماق البحار ، وعلى قنن الجبال ، وفي مجالات الجو . إن كل ذلك في الأعراف الإسلامية الصادقة واجب على المسلمين .
 وإنه لمن سوء القصد أن يشيع مشيع أن الإسلام يعارض غزو الفضاء والوصول إلى الكواكب .

إن الإسلام على العكس يوجب كل ذلك على الأمة الإسلامية التي يحب الله ورسوله أن تكون أقوى أمة في العالم حتى تؤدي رسالة الله التي كلفت بأدائها .

ونعود فنقول : لقد اتسم الإسلام بالعلم منذ « اقرأ » .

وإذا كان القرآن الكريم قد وجه الأمة الإسلامية إلى العلم ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم - وهو صورة قرآنية كاملة - قد حث المسلمين على العلم في أساليب شتى ، يقول صلوات الله وسلامه عليه : « من سلك طريقاً يبغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة . وإن الملائكة لتضع

أجنتها لطالب العلم رضاءً بما يصنع . وإن العالم ليستغفر له من في السموات
ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء . وفضل العالم على العابد كفضل
القمر على سائر الكواكب . وإن العلماء ورثة الأنبياء . وإن الأنبياء
لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم : فمن أخذه أخذ بحظ وافر»
رواه أبو داود والترمذى .

« باسم ربك :

إن الاتجاه العلمى فى الإسلام بدأ فى صورة صريحة بـ « اقرأ » ولكن
« اقرأ » فى الإسلام مشروطة بشرط يوجب الإسلام ويحتمه ، إنها ليست
مطلقة وإنما هى مقيدة بأن تكون : باسم ربك . وهنا يفتقر العلم فى صورته
الإسلامية عن العلم فى صورته الأوربية . بل تفتقر الحضارة الإسلامية
عن الحضارة الحديثة ، بل تفتقر الحياة الإسلامية فيما يجب أن تكون عليه عن
الحياة الأوربية : وذلك أن كل أمر من أمور المسلم يجب أن يكون :

« باسم ربك »

فالعلم أسساً وبواعث يجب أن يكون : « باسم ربك » والعلم أهلاً
وغايات يجب أن يكون باسم ربك . يجب أن يكون العلم فى سبيل الله أى أن
يكون للخير وللفضيلة ولإسعاد الإنسانية . فإن ما كان باسم ربك يحقق
كل خير ، وكل مكرمة ، وكل فضيلة ، وتسعد به الإنسانية .

والواقع ، والحقيقة أن القراءة المأمورها فى الآية الكريمة ليست إلا
رمزاً فحسب ، إنها رمز لما ينبغى أن تكون عليه جميع أعمال المسلم والآية
تريد أن تقول : تكلم باسم ربك ، قم باسم ربك ، اعمل باسم ربك ،
لكن حياتك كلاماً وصمتاً ، حركة وسكوناً : باسم ربك .

والآية الكريمة واضحة وضوحاً بيناً في الصورة الإيجابية من الأعمال
يبد أنها تتضمن الصورة السلبية أيضاً ، هذه الصورة التي صرحت بها
الآيات فيما بعد :

« وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » .

وكذلك كل ما ذبح باسم الأصنام فلم يذكر اسم الله عليه : فسق ،

يجب اجتنابه :

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
وَالْمُنْحَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ
وَمَا ذُبحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسْقُ الْيَوْمِ الْبَئِيسِ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ
مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » المائدة : ٣ .

وسواء أكلنا بصدد ما صرحت به الآية الكريمة : « اقرأ باسم ربك »
أم بصدد ما تضمنت ، فإن هذه الآية الكريمة التي أجملت دستور الأمة
الإسلامية إيجاباً وسلباً ، صراحة أو رمزاً أو إشارة : تفصلها ، نوعاً من التفصيل ،
آية أخرى فيها أمر إلهي لمن أعده الله ليكون أسوة حسنة للإنسانية :

« قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ
لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » .

إن الله سبحانه وتعالى يقول :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا » .

وهذه الأسوة الحسنة كانت صلواته ، وكان نسكه ، وكانت حياته

كلها بل كان مماته . . كان كل ذلك خالصاً لوجه الله الكريم لا يشركه سبحانه فيه شريك .

والمسلمون مأمورون بأن يسيروا على نهج رسولهم فتكون حياتهم سلباً وإيجاباً ، حركة وسكوناً ، بل يكون مماتهم : لله ، وباسم الله وفي سبيل الله ، إنها في جميع مظاهرها وظواهرها يجب أن تكون قراءة « باسم ربك » « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ » : فكل ما لم يكن خالصاً لوجهه أو كل ما لم يكن قراءة باسمه فليس عملاً إسلامياً : « لَنْ يَنَالَ اللهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ » .

* لماذا عدلت الآية الكريمة عن لفظ « الله » إلى لفظ : « ربك » ؟

والآية الكريمة : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » . ولقد كنا نتوقع ، ونحن بصدد أول آية نزلت من القرآن ، أن تأتي الآية بلفظ « الله » فتكون : « اقرأ باسم الله الذي خلق » وذلك أن هذا اللفظ الكريم : « الله » : يتضمن جميع صفات الله وجميع أسمائه . ولكن الآية الكريمة عدلت عن ذلك إلى لفظ « الرب » . وهذا العدول إنما هو لحكمة بالغة : وذلك أن الله سبحانه ينه من أول الأمر إلى أن القراءة يجب أن تكون باسم « الرب » باسم « المربي » أى أن القراءة يجب أن تكون في إطار التربية الإلهية ، ومعنى ذلك أن الحياة التي رمزت إليها « اقرأ » ، يجب أن تكون في الإيجاب والسلب ، في الحركة والسكون ، في النطق والصمت : في إطار التربية الإلهية ، في إطار الأوامر والنواهي ، في إطار ما رسمه الله للفرد ، وفي إطار ما رسمه الله للمجتمع .

والعدول عن اللفظ الكريم « الله » إلى اللفظ الكريم « الرب » إنما

كان - في بعض أهدافه - لهذا . إن هذا العدول يريد أن يقول للإنسان :
 إنك حينما تدخل - حراً مختاراً - في عهد الله وفي دينه وفي ميثاقه : يجب
 أن تروض نفسك منذ المبدأ على أن تستجيب استجابة مطلقة لله سبحانه
 وتعالى في أمره ونهيه .

يجب أن تعقد العزم على أن تكون ربانياً .

• « الذى خلق » :

أما ما يبرر ضرورة هذه الاستجابة إلى « ربك » فإن البرهان الضخم
 الحاسم يتمثل في قوله تعالى : « الذى خلق » .

وذلك أن الذى خلق أى الذى كون جميع أجزائك ، وركب جميع
 أعضائك ، ورتب جميع خلايا جسمك وجميع ذرات وجودك وأنشأك
 خلقاً سوياً - إن هذا الذى فعل ذلك - هو الأعراف بك . وحينما يضع دستوراً
 لك ، وحينما يرسم لك الحياة التى تسير عليها فإنما يفعل ذلك على علم ،
 ويفصل ذلك عن حكمة . إنه البارى ، إنه المكون ، إنه الخالق ، إنه
 المبدع . فكيف يتأتى أن نعدل عن تربيته إلى تربية مخلوق . ومهما بلغت
 عقلية هذا المخلوق ومهما بلغ نضجه فإنه مخلوق لا خالق ، مكوّن لا مكوّن .
 ولا يتأتى فى عرف ذوى البصائر المستنيرة العدول عن تربية الخالق إلى تربية
 المخلوق ، والعدول عن تربية الرب إلى تربية المربوب ، إنه عدول عن
 تربية الكامل إلى تربية الناقص .

« تلخيص ما سبق :

لعلنا بتوفيق الله قد وضحنا بعض ما تدل عليه المادة الأولى من الدستور القرآني : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ونلخص ما سبق في أن هذه المادة تدل على :

١ - العلم : « اقرأ » .

٢ - أن تكون الحياة الإسلامية « باسم ربك » ، أى متجهة إلى الله سبحانه وتعالى .

٣ - أن تكون هذه الحياة في إطار التربية الإلهية ويدل على ذلك استعمال لفظ « ربك » والعدول عن لفظ « الله » .

٤ - ضرورة الاستجابة إلى هذه التربية بالذات دون غيرها ، لأنها تربية « الذي خلق » .

الفصل الثاني

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

توجيهاتها بالنسبة للغزو الفكري والثقافات الوافدة

ولكننا لم ننته بعد من دلالات الآية الكريمة . وذلك أننا إذا كنا قد ذكرنا بعض هذه الدلالات متخذين ألفاظ الآية أساساً :

فإن للآية جواً وروحانية ناشئة عن تركيبها العام وعن مغزاها الذي ينبثق عن هذا التركيب . وينبثق عن الجوا الذي قيلت فيه . وعن ذلك سنأخذ في الحديث الآن والله الموفق .

« اقرأ باسم ربك الذي خلق » .

إذا قرأ الإنسان باسم ربه ، إذا استجاب الإنسان - بمقتضى دخوله في عقد الإيمان - للتربية الإلهية ، إذا كيف الإنسان حياته كلها لتكون قراءة باسم ربه . . فقد أسلم .

وإن : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » لا يخرج معناها ، في ثمرته ، عن معنى : « أسلمت » والمسلم هو من دخل في الإسلام ، والإسلام هو أن يسلم الإنسان وجهه لله . ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الإسلام فقال :

« أن تسلم لله وجهك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

والإنسان إما مسلم صادق وإما مسلم مزيف . والمسلم الصادق لا يسمح لنفسه أن ينهل من منابع غير إلهية في الأمور التي أنزل الله فيها وحياً ، إن

المؤمن الصادق لا يتخذ له في العقيدة أو في الأخلاق إماماً غير إمامه الرباني ،
والأمور التي أتى بها الدين ونزل بها الوحي وصرح بها الكتاب هي مبادئ
لا يجوز- في أعراف المؤمنين الصادقين - العدول عنها إلى غيرها .

والموقف القرآني في ذلك حاسم كل الحسم :
« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

ولقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة حياته على أن تستمر
المنابع التي يستقى منها المسلمون صافية صفاء مطلقاً ، وعلى أن تستمر
القراءة^(١) « باسم ربك » لا تستقى إلا من المنابع الإسلامية الصافية .

وأول منبع هو القرآن الكريم ، ولقد حرص رسول الله صلى الله عليه
وسلم ألا يختلط بالقرآن غيره ، وكان شديد الحرص في ذلك إلى درجة
أنه لم يسمح ، في العهد الأول من الوحي ، أن تكتب الأحاديث التي
كان ينطق بها حتى لا تختلط بالقرآن ، ثم لما بان معالم القرآن ، وبدت
أوصافه الذاتية في وضوح وأسفرت آياته عن شخصيته سمح الرسول صلى الله
عليه وسلم بكتابة السنة .

ولقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يلوث الدين الإسلامي
بغيره . ولقد روى المحدثون في ذلك أحاديث في غاية العمق . منها ما رواه
الإمام أحمد ، قال حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشام ، أنبأنا خالد
عن الشعبي ، عن جابر : « أن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم
بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم ،

(١) لعل القارئ يلاحظ أننا نستعمل القراءة هنا على أنها رمز للحياة كلها في حركتها وسكونها
كما سبق أن أوضحنا ذلك .

قال : فغضب وقال : أنتهوكون^(١) فيها يا بن الخطاب ؟ والذي نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو يباطل فتصدقونه ، والذي نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى « إسناده صحيح » قصص الأنبياء ص ٣٠٨ ج ١ .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، والبيهقي في شعب الإيمان عن الزهري أن حفصة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب من قصص يوسف في كف فجعلت تقرأه عليه والنبي عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه ، فقال : « والذي نفسى بيده لو أنا كم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتمونى ضللتم ، أنا حظكم من النبيين وأنتم^(٢) حظى من الأمم » .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي أيضاً عن أبي قلابة « أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مر برجل يقرأ كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل : اكتب لى من هذا الكتاب قال : نعم فاشتري أديماً فهبأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره ويطنه ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقرأه عليه وجعل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلون فضرب رجل من الأنصار الكتاب وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب .

فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند ذلك : « إنما بعثت فاتحاً وخناتماً ، وأعطيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى الحديث اختصاراً ، فلا يهلكنكم المهوكون » (أى الواقعون فى كل أمر بغير روية) . وقيل :

(١) أى أنتشككون فى ملتكم .

(٢) أنتم : أى ، أمة الإجابة ، أى الأمة الإسلامية كلها ، والله سبحانه وتعالى يقول ورسوله صلى الله عليه وسلم يعلن فى القرآن عن رسالة الله التى أرسله بها . لأنذركم به ومن بلغ .

المتحIRON إلى ذلك من الأخبار.

وأخرج الفريابي ، والدارمي ، وأبو داود في مراسيله ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن يحيى بن جعدة قال :

جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بقوم حمقاً أوضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم ، إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » ، فنزلت : « أُولَئِكَ يَكْفِيهِمْ أَنَّا آتَيْنَاكَ الْكِتَابَ يَتْلِي عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (العنكبوت : ٥١) .

وأخرج الإسماعيلي في معجمه ، وابن مردويه عن يحيى هذا ما هو قريب مما ذكر مروياً عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبد الغفار بن عبد الله ابن الزبير حدثنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق عن خليفة بن قيس عن خالد ابن عرفطة قال : « كنت جالساً عند عمر إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال : نعم ، قال : وأنت النازل بالسوس ، قال : نعم ، فضربه بقناة معه ، قال فقال الرجل : ما لي يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر : اجلس ، فجلس ، فقرأ عليه :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الرَّ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » ، فقرأها عليه ثلاثاً وضربه ثلاثاً ، فقال له الرجل ما لي يا أمير المؤمنين ؟

فقال أنت الذى نسخت كتاب دانيال ، قال مرني بأمرك أتبعه ، قال انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً

من الناس ، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأهتكك عقوبة . . ثم قال اجلس فجلس بين يديه ، فقال :

انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ثم جئت به في أديم فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماذا في يدك يا عمر ؟ » قلت يا رسول الله كتاب نسخته لتزداد به علماً إلى علمنا . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه . ثم نودي بالصلاة جامعة فقالت الأنصار أغضب نبيكم صلى الله عليه وسلم : السلاح السلاح ، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« يا أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي اختصاراً ، ولقد أتيتكم بها ببيضاء نقيّة فلا تتهوكوا ولا يغرّزكم المتهوكون » قال عمر فقلت : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبك رسولاً .
ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن طريف ما يروى عن السيدة عائشة رضوان الله عنها ما أخرج ابن عساکر عن أبي مليكة قال : أهدى عبد الله بن عامر بن ركن إلى عائشة رضي الله عنها هدية فظنت أنه عبد الله بن عمرو فرددتها وقالت :

يتبع الكتب ؛ وقد قال الله تعالى :

« أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . »

فقيل لها : إنه عبد الله بن عامر فقبلتها^(١) .

ولقد اختلف موقف المسلمين ذوى الألباب الزاكية اختلافاً صريحاً

(١) انظر في كل هذه الأحاديث تفسير ابن كثير ، الألبومى ، وقصص الأنبياء لابن كثير عند تفسير أول سورة يوسف عليه السلام : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ، وعند تفسير : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب » .

سافراً بالنسبة للأخذ من مجالى الحضارة : المادى والروحى ، أما موقفهم بالنسبة للمجال المادى من الحضارات التى لم تنشأ فى الجور الإسلامى سواء أكان ذلك فى القديم أم فى الحديث ، فقد كان ولا يزال ، موقف المشجع على الأخذ منها أينما كانت ، وعلى المساهمة فيها مساهمة فعالة وعلى الارتقاء بها وتطويرها تطوراً مستمراً . إن اكتشاف نواميس الله فى الكون من واجبات المسلم . ولقد ترجم سيدنا عمر بن عبد العزيز كتاباً فى الطب لما رأى حاجة المسلمين إلى ذلك .

ولما ترجمت كتب الكيمياء والطبيعة والطب والفلك فى عهد أبى جعفر المنصور وبعده لم يجد ذلك من المسلمين إلا كل ترحيب . ولكن موقف المسلمين فى الجانب الروحى من الحضارات القديمة والحديثة موقف يختلف عن ذلك كل الاختلاف .

لقد انتهر الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر فى شدة لأنه أتى بصحف من التوراة يتلوها ، وغضب صلى الله عليه وسلم على كل من حاول أن يستقى فى العقيدة والأخلاق من منبع غير القرآن والسنة النبوية الشريفة . وسار المسلمون على هذا النسق من التفرقة بين الجانب المادى والجانب الروحى حتى كان عصر المأمون . ومهما تحدث المتحدثون عن الازدهار والقوة والمجد فى عصر المأمون ، ومهما قالوا من أنه العصر الذهبى للأمة الإسلامية فإنه مع ذلك عصر يتسم بسيئتين : إحداهما لا يغفرها له المحبون للحرية ، والثانية لا يغفرها له أهل الصلاح والتقوى .

أما الأولى فإنها دخول المأمون فى النزاع الذى كان بين علماء المسلمين فى مسألة خلق القرآن . لقد دخل المأمون فى هذا النزاع بقوة الدولة : رغبة ورهبة . لقد دخل متحيزاً لفئة ، منكلاً بالفئة الأخرى .

ولقد تحيز للمعتزلة ، والمعتزلة قوم حكموا أهواءهم في الدين وحسبوا أن ما يقولونه إنما هو حكم العقل . ولو كان حكم العقل لما اختلفوا هم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً . إنهم لم يأخذوا الدين مأخذ المستهدى ، ولم يعترفوا بأن الدين نزل هادياً للعقل ، وإنما رأوا أن العقل هو المرتبة الأولى في معرفة الخير والشر . وهم قوم كانوا يتسمون بالتحمس الشديد للجدل النظرى ويتسمون بالفتور الشديد للجانب العملى من الدين . ومن أجل ذلك انصرف جمهور الأمة الإسلامية عنهم .

وكان في مواجهة هؤلاء طائفة من علماء المسلمين تتسم بالصلاح والتقوى ، وتوطنين النفس على الاستهداء بالدين وعلى السير في ركاب النص القرآنى أو الحديث النبوى . ولقد كانت هذه الطائفة تتسم بالتحمس الشديد للجانب العملى من الدين . وكانت تتسم بقوة الإيمان فصير ذلك حياتها إلى جهاد في سبيل الله وكفاح من أجل السير على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه رضى الله عنهم والصدر الأول للأمة الإسلامية ، وكانت تضم أمثال الإمام أحمد بن حنبل والإمام مالك ، وكان يهتدى بهديهما ويقتدى بسلوكلهما جمهور الأمة الإسلامية .

لقد ترك المأمون هذه الطائفة وانحاز إلى المعتزلة ، انحاز إلى المعتزلة بقوة الدولة فأغدق المال على أنصاره ، وأخذ ينكل بكل من يعارضه . وكان المعارضون له هم من المتسمين بالصلاح الحقيقى والتقوى الصادقة : إنهم أمثال الإمام الصالح أحمد بن حنبل .

وما كان لنا أن نعيب دخول المأمون في نزاع علمى لو أنه دخل دخول الأب الرحيم المهدي للنزاع ، لو أنه دخل دخول الأخ الأكبر مطلقاً ومانعاً للحدّة بين الإخوة . إننا لا نتنقد الدخول في النزاع وإنما نتنقد الكيفية

والصورة ، إنها ليست صورة دخول علمي في موضوع نقاش ديني ، وإنما هي صورة دخول جبروتي ، دخول من يريد أن يأمر ليطاع ، دخول من لا يريد أن يصغى إلى نصيح ولا أن يستجيب لبرهان :

هذه سيئة ، وهي سيئة لا يرضى بها أحرار الفكر ولا يرضى بها المتدينون .

أما الثانية : فهي أنه برغم موقف جمهور المسلمين الحاسم من التراث الروحي للأمم الأخرى ، وبرغم معارضتهم الشديدة للغزو الفكري ، فإن المأمون تحداهم تحدياً سافراً أمراً بترجمة التراث الروحي والتراث الأخلاقي للأمم الأخرى ، يونانية كانت أو فارسية أو غيرها .

لقد ظن المأمون أن ذلك سينصره في القضية التي اتخذ الخصومة فيها مسألة كرامة ذاتية .

ولقد حكى ابن النديم في ذلك رؤيا للمأمون معبرة أوضح ما يكون التعبير : عن نزعة المأمون أو عن نزغته .

لقد رأى المأمون فيما يراه النائم : رجلاً أبيض اللون ، مشرباً بحمرة ، واسع الجبهة ، حسن الشمائل ، جالساً على سرير ، قال المأمون :

وكأنى بين يديه قد ملئت هيبة . من هو هذا الرجل ؟ أهو أحد الخلفاء

الراشدين ؟ أهو أحد كبار الصالحين ، إن المأمون يصفه وصفاً جميلاً .

وصورته تملأ المأمون هيبة : فمن هو يا ترى ؟

يقول المأمون :

فقلت : من أنت ؟

فقال : أنا أرسطو .

فسررت به ، وقلت : أيها الحكم ، أسألك ؟

قال : سل ..

قلت : ما الحسن ؟

قال : ما حسن في العقل .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ما حسن في الشرع .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ما حسن عند الجمهور .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ثم لا ثم .

قلت : زدنى .

قال : عليك بالتوحيد .

وسواء أصبحت هذه الرؤيا أم لم تصح فإنها تعبير صادق عما كان في نفس المأمون وفي نفس المعتزلة من إكبار لأرسطو .

ولعل القارئ قد لاحظ مبدءاً في غاية الخطورة وهو مبدءاً تقديم العقل على الشرع ، لقد جعلت رؤيا المأمون العقل في الدرجة الأولى وجعلت الشرع في الدرجة الثانية وهو مبدءاً معروف عند المعتزلة وعند المأمون ، وهو مبدءاً لا يقره أمثال الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين .

أما التوحيد في الرؤيا فإنه التوحيد الذي عناه المعتزلة والذي عبر عنه أهل السنة بكلمة : « التعطيل » .

واستيقظ المأمون من رؤياه : فأمر بترجمة كتب أرسطو .

ولاقت هذه البدعة الجديدة ، بدعة ترجمة كتب العقائد ، وكتب الأخلاق معارضة شديدة في الأجواء الإيمانية ، لقد رأيت هذه الأجواء

أن في عقائد المسلمين وفي أخلاق المسلمين من الصدق ومن الحق ومن
الوضوح ما يغني عن غيرها .

ورأت أن عقائد المسلمين وأخلاق المسلمين قد حددها الأسلوب الإلهي
وبينها الأسلوب النبوي .

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي عبر عنها . وإن رسوله صلى الله عليه وسلم
قد طبقها . وهذه ميزة لا توجد في غير الدين الإسلامي .

أمن المعقول أن يدع عاقل من العقلاء الرسم الإلهي لصلة الإنسان
بربه ولصلة الإنسان بالآخرين إلى رسم بشري لهذه الصلة : رسم بخطي
ويصيب . ويضل ويهتدى ؟

أمن المعقول أن يدع الإنسان الأسلوب الإلهي في نضرتة ودقته وإحكامه ،
وفي وضوحه ، وبلاغته ، وإعجازه ، إلى أسلوب بشري يترجمه أسلوب
بشري آخر .

إن البشر في تأليفهم بشرهما بلغوا من الدقة . ورحم الله العماد في قوله
المشهوره من أنه لا ينتهي الإنسان من تأليفه إلا ويتمنى أن لو أعاد التأليف
من جديد ليغير ويبدل ويزيد ويحذف . وهذا شأن البشر ، شأنهم على مر
العصورمهما بلغوا من العبقرية والنضج .

وهذا التأليف على هذا النمط لا تقرؤه بلغة صاحبه وإنما تقرؤه بلغة
مترجم يترجم ما فهم هو من معاني المؤلف ، إن الترجمة مهما بلغت من الدقة
ليست إلا فهم المترجم لكلام المؤلف .

ولم الترجمة ؟ أفي العقيدة التي جاء بها القرآن والسنة نقص يستكمل ؟ ،

أفي الأخلاق التي رسمها الله ورسوله خلل تزيله ترجمة كتب الوثنيين ؟

إن الآراء التي لا تستند إلى وحى معصوم هي آراء وثنية . وإن الفرق

بين الوثنية والإيمان إنما يرجع إلى أن الإيمان مصدره الوحي ، أما الوثنية فمصدرها البشرية في عجزها وقصورها وجهلها ، وإن البشرية مهما بلغت في الرقي الحضارى لا تنفك متمسكة بالعجز والقصور والجهل . وإن الاكتشافات الحديثة التي لا تنقطع والتي تطلع علينا الأخبار منها كل يوم يجديدها أوضح دليل على عجز البشرية وقصورها وجهلها .

ولن تبلغ البشرية يوماً ما حد الكمال لأنه لن تصل البشرية يوماً إلى الانتهاء من اكتشاف كل مجهول ، والكشف عن كل غامض وإزالة الحجب عن جميع المعميات ؟ .

أترك العصمة المطلقة في الوحي ، وتترك بيان من لا ينطق عن الهوى لناخذ بقول هذا أو ذاك ممن يتسمون دائماً بالنقص والعجز ، ومن جهلهم أكثر من علمهم مهما بلغوا في المعرفة والعلم ؟
هذه الآراء التي كانت تدور في البيئة الإسلامية إذ ذاك والتي كان يؤمن بها ويتقبلها الأغلبية من الشعب لم تقف في وجه الترجمة ولم تحل دون تنفيذ المأمون لفكرته .

لقد نفذ المأمون الفكرة . ووجد الأمراء أن من رضاء المأمون أن يجذب الإنسان هذه الفكرة ، وأحب الأمراء رضاء المأمون : فساهموا في مشروع الترجمة . ووجد الأثرياء أن من وسائل التقرب إلى المأمون أن يساهموا في مشروع الترجمة : فعملوا على المساهمة بما لهم في مشروع الترجمة . ووجد المثقفون أن من عوامل التقرب من المأمون أن ينشروا آراء أرسطو وأفلاطون وغيرها : فتعلموها ، ودرسوها ، وعلموها ودرسوها .

وإذا كانت أفكار اليونان قد بدأت الدخول في البيئة الإسلامية على استحياء فإنها ، بمر الزمن ، استوطنت وألقتها كثير من الناس عن

طريق التكرار . وشاعت الآراء واستقرت بالإلـف والعادة والتبني والدعاية .

ومنذ ذلك الحين أصبح بجوار :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » . . أصبح بجوارها : « اقرأ باسم أرسطو ،
واقراً باسم أفلاطون » ، وفى العصور الحديثة : « اقرأ باسم ديكارت »
أو اقرأ باسم . . .

وبدا انحلال الأمة الإسلامية لأنها لم تعد تقرأ « باسم ربك » أو قبل
إن انحلال الأمة الإسلامية وضعفها بدأ منذ أن بدأت تشرك مع التعاليم
الإسلامية غيرها .

وإذا كان عصر المأمون يؤرخ العصر الذهبي للأمة الإسلامية، فإنه
أيضاً يؤرخ للخطوات الأولى للديب الضعف فى هذه الأمة .

إن الفلسفة اليونانية والفكر النظرى فى العقيدة والأخلاق، والانصراف
إلى ذلك والاشتغال به وجعله مظهراً للحضارة والرقى والمدنية لا ينتج إلا فتوراً
فى الإيمان وتحاذلاً فى العزائم وتشككاً فى كل القيم .

وهل ينتج البحث العقلى : البحث فى القيم والمعايير الدينية والأخلاقية -
على أسلوب الإنكار والإثبات ، والأخذ والرد ، والجدل والممارسة - إلا فتوراً
واستهانة ؟ .

هل أنتجت الفلسفة إيماناً قوياً ؟ هل أنتجت عزائم من حديد ؟

هل قادت إلى النصر ؟

وتأمل معى ملياً فى أسباب نهضة أوروبا فى عصورها الحديثة .

إننا نعرف أن أوروبا عاشت أزماناً متطاولة فى جهل وهمجية وانحطاط .
ولقد عاشت كذلك لأنها كانت تبني نزعة أرسطو أو منهج أرسطو ، أى أنها
كانت تبني الجدل الفارغ الذى لا يودى إلى نتيجة ، ولا ينتهى إلى ثمرة :

المهم إلا الفتور والتخاذل والشك .

ثم بدأت أوروبا تنبئ إلى منهج آخر في الحياة وبدأ « بيبكون » يعلن عن طريقة وأسلوب للمعرفة لا يعتمد على العقل النظري البحت ، وبدأ منهج التجربة والملاحظة والاستقراء .

وأرخ هذا الاتجاه التجريبي بدء عصر النهضة الأوربية . وكما أرخ بدء التخلى عن هذا الفكر الأرسطي^(١) انحطاط الأمم الإسلامية ، فقد أرخ بدء التخلى عن هذا الفكر بدء النهضة الأوربية الحديثة .

وإذا كان المسلمون قد بلغوا قمة مجدهم حينما كانوا يقرأون « باسم ربك » وحده فإنهم قد بلغوا قمة ضعفهم حينما بلغت « باسم ربك » حددها الأدنى أى حينما تخلوا أو كادوا عن أن يتخذوا من منابع دينهم الصافية موجهاً وقائداً .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولاً ، أى العودة إلى : « اقرأ^(٢) باسم ربك الذى خلق » .

هل يعنى ذلك أن تمنع الترجمة ؟ هل يعنى ذلك أن نعيش في عزلة عن الفكر العالمى ؟ هل يعنى ذلك أن تمنع أنفسنا عن الاطلاع على الثمار التى أنتجتها عقول العباقره أمثال أفلاطون وديكارت واسبينوزا وبرجسون ؟ ليس إلى هذا قصدنا وإنما قصدنا إلى معنى يعلمه في وضوح كل من يتتبع تاريخ الفكر البشرى عبر القرون .

إن الظاهرة الواضحة في تاريخ الفكر البشرى الذى لا يستند إلى

(١) لا نقصد أرسطو بالذات ، أو أرسطو فقط ، وإنما نقصد الفكر النظري في مسائل ما وراء الطبيعة والأخلاق الذى لا يستند إلى وحى معصوم .

(٢) نعود فنقول نعى به « اقرأ » رمزاً للحياة كلها في حركتها وسكونها ، في صمتها ونطقها .

التجربة أو الملاحظة أنه متغير باستمرار.

وأنه لا يستقر على رأى وأنه فى صيرورة دائمة . وهذه الصيرورة ليس من المحتم أن تسير دائماً فى طريق الجديد بل يجوز أن تعود القهقرى فترجع إلى مذهب نخلت عنه ، وتعود إلى ما كانت قد عرفت عنه . ويأخذ القديم طريقه إلى الانتشار من جديد ، ثم يعنى عليه الزمن مرة ثانية أو ثالثة وهكذا يعيد التاريخ الفكرى نفسه تارة ويتجدد أخرى .

ومن الملاحظ أيضاً أنه ليس من المحتم أن يكون الجديد ترقياً فى الفكر أو سمواً فى الآراء . بل قد يكون على العكس من ذلك انتكاساً وانحداراً .

وهذه الظاهرة البادية لكل دارس جعلت بعض المفكرين يقولون إن الآراء النظرية البحتة مثلها كمثل أزياء النساء تتبدل كل عام . وهذا التشبيه للآراء العقلية البحتة فى جانب العقيدة ، وفى جانب الأخلاق بأزياء النساء فى التبدل والتغير والاختلاف والتطور من القديم إلى الجديد ومن الجديد إلى القديم تشبيهه فى غاية الصدق .

لقد كادت فرنسا يوماً ما أن توله « أوغسط كومت » لقد كان أتباعه ومريدوه يقدسونه ولقد وضعوه على القمة . . ومضى الزمن وأصبحت آراء « أوغسط كومت » لا يقام لها وزن اللهم إلا أنها حلقة من حلقات التاريخ الفكرى الذى عنى عليه الزمن .

ولقد كانت السوفسطائية يوماً من أكثر المذاهب انتشاراً فى اليونان ثم عنى عليها الزمن واندثرت وتبينت الأمة اليونانية أنها مذهب هدام . بل يصل به الهدم إلى هدم نفسه . وانتهت الأمة اليونانية منه ودفنته وتعفن كمنذهب . ثم بعثته طائفة من المنحرفين فى العصر الحديث تحت اسم « الوجودية » وليست الوجودية إلا هذا المذهب المتعفن الذى تقاياه بعض

المنحرفين في اليونان منذ ما يقرب من خمسة وعشرين قرناً من الزمن .
 وإذا رأيت في بعض أحياء أوروبا قتي يلبس لبس فتاة وتسأل لماذا يفعل
 ذلك قيل لك إنه وجودي ، وإذا رأيت فتاة تخرج على أدنى درجات العرف
 الأخلاقي وسألت عنها قيل لك إنها وجودية ، وإذا رأيت إلحاداً سافراً وكفراً
 صراحاً ، وسألت : قيل لك إن ذلك وجودية .

وإيمان الوجودي - إذا آمن - مسألة مزاج ، إنه « كيف » كشرب
 السجائر مثلاً وكشرب الشاي في مواعيد معينة ، وهو بهذا الاعتبار ليس
 إيماناً ، فليس في الوجودية في حقيقة الأمر إيمان بالمعنى الصحيح للإيمان ..
 وأشماز الغرب من الوجودية ، وها هي ذى تلفظ أنفاسها الأخيرة هناك ، وذلك
 لأن الغرب شاهد المظاهر وشاهد النتائج فعرف أن الوجودية مذهب المتحللين
 والمنحرفين .

ولقد ظننت الدنيا لمذهب ديكارت ، وصفق العالم له ، وظن الدكارتيون
 أن منهج ديكارت سيحل كل مشكلة ، ويزيل النقاب عن كل محجوب ،
 ويكشف عن كل مخبأ . . وتمضى الأيام ، وإذا بالمشاكل هي المشاكل ،
 والمحجوب هو المحجوب ، والمخبأ هو المخبأ برغم استعمال منهج ديكارت
 وتحكيمه عن طريق ديكارت نفسه وعن طريق الديقارتيين . وتمضى الأيام
 كذلك ، وإذا بآراء ديكارت في الطبيعة - آراؤه التي بناها متخذاً فيصلاً -
 قد انهارت رأساً على عقب .

ولنتحدث الآن عن الفلسفة بصراحة .

إن من خصائصها - على مر الزمن - أنها تبدأ من الصفر : أى أن
 كل فيلسوف يأتي يعلن أن العالم منذ أن وجد لم يظهر على وجهه شخصية
 وصلت إلى الحق في محيط ما وراء الطبيعة ، وفي محيط الأخلاق ، وأن

مجال العقائد ومجال الأخلاق ما زال بحاجة إلى نظرة من الأساس . إنه ما زال بحاجة إلى بناء يبدأ بوضع اللبنة الأولى تليها اللبنة الثانية إلى أن يتم الصرح . ويعلم الفيلسوف بذلك أن جميع الصروح القديمة في تصميمها خلل ، وفي وضعها فساد ، وأنها خطأ في منهجها وفي وضعها ، وأن العالم الذي عاش بهذه الطريقة قد عاش - منذ أن وجدت هذه الصروح - في أوهام . إنه يعلن بذلك أن آراء الفلاسفة السابقين ... أوهام .

ومن خصائص الفلسفة أنه لا مقياس لها تلجأ إليه عند الاختلاف ، لقد أخفق منطق أرسطو عند أرسطو نفسه وأخفق عند كل المناطق ، إنه لم يحسم الخلاف في مسألة ما .

وأخفق منهج ديكارت عند ديكارت وعند كل من استعمله ، ومنهج أرسطو ومنهج ديكارت هما أشهر المناهج في الفلسفة القديمة والحديثة . كيف نصل إلى الحق إذا اختلفنا في مسألة ؟ كيف نحسم الخلاف إذا أردنا ذلك ؟ كيف نتفق ؟ إن ذلك لا سبيل له في الجو الفلسفي .

إن العلم المادى إذا اختلف فيه العلماء فإن الفاصل في هذا الخلاف إنما هو التجربة أو الملاحظة .

والملاحظة والتجربة فيصل في الجو العلمى المادى . ما هو الذى - في الجو الفلسفي - بمثابة التجربة في الجو العلمى ؟ لا شيء .

ومن هنا نشأ أمران هما من خصائص الفلسفة .
أما أحدهما فهو أن الفلسفة في جميع آرائها - عقلياً - ظنية ، وذلك - أنه لا وسيلة للفصل فيها بين الخطأ والصواب .

أما الثانى فهو أن الخلاف في الفلسفة سيستمر أبداً الدهر : ستجد دائماً المؤيد للفكرة - أى فكرة - والناقد للفكرة - أى فكرة - ستجد المثبت والمنكر .

وينتج عن كل ما قدمنا نتيجة لازمة هي من خصائص الفلسفة أيضاً وهي أن الفلسفة لا تقدم فيها . إن مسائلها القديمة هي مسائلها الحديثة ومشاكلها مشاكلها في كل عصر وفي كل زمن . إن مسائل الفلسفة ومشاكلها في عهد أفلاطون هي مسائل الفلسفة ومشاكلها في عهد ديكارت ، وهي مسائل الفلسفة ومشاكلها في الزمن المعاصر وحتى مضحكات الفلسفة - وللأسف مضحكات قد صورت بصورة مشاكل - حتى مضحكات الفلسفة : المشكلة ، لا تزال هي هي . إن برجسون في العصر الحديث قد أخذ يتحدث عن مشكلات الفيلسوف الساخر زينون الذي ابتدع في صورة طريفة من البدهيات مشاكل وحاول توريط الفلاسفة فيها . ونجح في أن جرهم إلى البحث في البدهيات ، وإلى جعلها مشاكل ، وإلى الوقوف عاجزين أمامها مع بدايتها ، وسخر منهم زينون ، وسخر منهم كل ذى بصر وبصيرة . ومن كل ذلك أيضاً نتبين أن الفلسفة - وهذا من خصائصها أيضاً - لا رأى لها معيناً في أية مسألة من المسائل وذلك أن لها في كل مسألة رأيين متعارضين أو آراء متعارضة .

ولعله أصبح الآن سافراً أن من « يقرأ باسم الفلسفة » فإنما يقرأ باسم

سراب .

أما النتيجة التي نريد أن نصل إليها من كل ما تقدم فهي أننا لو قرأنا الآراء النظرية البحتة على هذا الوضع الذي أوضحناه فلا بأس وتكون بذلك القراءة باسم الفلسفة أو باسم الجانب النظرى من الفكر الإنسانى مسلاة وتسلية وسياحة في أجواء تختلف وتتعارض وتتناقض ونستفيد منها عبرة فيما يتعلق بعجز الإنسان وقصوره : ونعود من هذه السياحة مقتنعين بوجوب :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

الفصل الثالث

اِفْتَلِ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

لقد نزلت في ليلة القدر

• ليلة القدر :

يقول الله تعالى :
« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ ، وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ » .

ويقول سبحانه :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

وليلة القدر إذن : هي في شهر رمضان ، أخذًا من هذه النصوص
الكريمة .

ويجبر سبحانه ، عن هذه الليلة ، أنها خير من ألف شهر ، إذ تنزل
الملائكة والروح فيها ، بإذن ربهم من كل أمر .

وهي فضلًا عن ذلك : سلام يستمر من غروب الشمس حتى مطلع
الفجر .

ومن أجل هذا الفضل العظيم ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
يستعد لها بالعبادة ، ويهيئ الجو الروحي المناسب لنزول الملائكة والروح ،
والمناسب للسلام القلبي ، الذي هو ثمرة التوبة ، والإينابة والتقوى ، والذي

هو اطمئنان النفس إلى الله ، فيخاطبها سبحانه خطاباً تفهمه .
 يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ : ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ - في هذه الدنيا وفي
 الآخرة - رَاضِيَةً - عن الله ، مَرْضِيَةً منه - فادخلي في عبادي - عاجلاً -
 وادخلي جَنَّتِي . آجلاً .

وكانت التهيئة التي يقوم بها ، صلى الله عليه وسلم ، استعداداً لشروق
 نور هذه الليلة الشريفة ، إنما هي الاعتكاف .

وكان صلى الله عليه وسلم ، يعتكف عادة في العشر الأواخر من رمضان ،
 فيدخل المسجد قبل غروب شمس اليوم العشرين من الشهر المبارك : يدخل
 متفرغاً للعبادة ، متجهاً إلى الله بكل كيانه .

وما من شك : في أن الاعتكاف في المسجد ، يهيئ الجو لجمع الخواطر ،
 ويهيئ الصفاء القلبى ، فيتفرغ الإنسان للطاعة ، متشبهاً بالملائكة ، ويتعرض
 بذلك لليلة القدر .

وقد كان صلى الله عليه وسلم ، يحث الصحابة على هذا الاعتكاف
 ويشجعهم عليه ، التماساً لمرضاة الله تعالى ، وتعرضاً لإشراق ليلة القدر .

وهي ليلة يكون فيها انتشار الروحانية بقراءة القرآن ، والصلاة والذكر ،
 وتنزل فيها الملائكة طائفة بالذاكرين ، مستغفرة لهم ، ومصلية عليهم ،
 ومبشرة لهم .

عن أنس رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 « إذا كان ليلة القدر ، نزل جبريل في كعبة من الملائكة ، يصلون
 ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد ، يذكر الله تعالى » .

ويقول الله سبحانه وتعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ :

أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَى أَنْفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ، نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ .

إن أنوار المؤمنين المتبتلين في تلك الليلة ، تتلأأ متألقة فيما بينهم ، وتمتريج فتجذب بتلألؤها الأرواح الملائكية ، فتقرب من المتعبدين ، فتريد في الصفاء ، فيكون انشراح الصدور ، ووضع الأوزار التي تنقص الظهور ، ويكون غسل القلب بالماء والثلج والبرد ، وتتوفر بكل ذلك وسائل التعرض لنفحات الله .

« إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها . »

وليلة القدر من نفحات الله التي يستجاب فيها الدعاء ، وتغفر الذنوب

للتائبين النبيين ، وهي في أوتار العشر الأواخر من رمضان .

يقول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه :

« تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان . »

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا دخل العشر الأواخر من

رمضان : أحيا الليل كله ، وأيقظ أهله ، وجد ، وشد المئزر . ولكن أى ليلة

هى ؟

لقد أخفاها الله سبحانه لحكمة هى : إحياء عدد من الليالى في طاعة

الله ، التماساً لها ، أما هذا الذى وهبه الله التوفيق ، فأحياها ملتماً مرضاة

الله فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه .

يقول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الإمام البخارى رضى الله تعالى

عنه :

« من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً : غفر له ما تقدم من ذنبه . »

وبعد :

فقد روى الإمام الترمذى ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت :
« قلت : يا رسول الله : أرايت إن علمت أى ليلة ، ليلة القدر ما أقول

فيها ؟ »

قال صلى الله عليه وسلم :

« قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو ، فاعف عني » .

الفصل الرابع

اِفْتَلْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

إنها بداية الوحي وأول آية نزلت من القرآن

• وصف القرآن :

إن أصدق وصف للقرآن هو الوصف الذي أتى به القرآن نفسه ، ومهما قال القائلون في وصفه وتفنن الكتاب في إعطاء صورة عنه فإنهم لن يبلغوا الوصف الذي وصفه به منزله سبحانه وتعالى ، ونحن فيما يلي نذكر بعض ما ورد في القرآن عن القرآن :

القرآن من أسباب بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم .
« رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »^(١) .

« لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَالِّينَ مُبِينِينَ »^(٢) .

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ »^(٣) .

(٢) آل عمران - آية : ١٦٤ .

(١) البقرة - آية : ١٢٩ .

(٣) البقرة - آية : ١٥١ .

مصدره :

- « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » (١)
 « حمّ ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » (٢)
 « حمّ ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » (٣)
 « أَلَمْ يَكُنْ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » (٤)
 « حمّ ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ » (٥)

أوصافه :

مبين

- « أَلَمْ تَرَ أَنَّ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » (٦)
 « أَلَمْ تَرَ أَنَّ آيَاتِ الْكِتَابِ وَقُرْآنِ مُبِينٍ » (٧)
 « طَسَّ تِلْكَ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ » (٨)

هو نور :

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي

(١) النمل آية : ٦ .

(٢) غافر آية : ١ ، ٢ .

(٣) الجاثية - آية : ١ ، ٢ .

(٤) هود - آية : ١ .

(٥) الدخان - آية : ١ ، ٣ .

(٦) يوسف - آية : ١ .

(٧) الحجر - آية : ١ .

(٨) النمل - آية : ١ .

التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ، وَالْأَغْلَالَ
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ، وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي
أُنزِلَ مَعَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ « (١) .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا « (٢) .
« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نُهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَنْهَدِي
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ « (٣) .

حكيم :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ « (٤) .

حق :

« وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ « (٥) .

مبارك :

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ « (٦) .

(١) الأعراف - آية : ١٥٧ .

(٢) النساء - آية : ١٧٤ .

(٣) الشورى - آية : ٥٢ .

(٤) يونس - آية : ١ .

(٥) فاطر - آية : ٣١ .

(٦) ص - آية : ٢٩ .

« وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (١)
 « وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى
 وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ
 يُحَافِظُونَ » (٢)

معجز :

« قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا
 يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » (٣)

عظيم :

« وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » (٤)

على حكيم :

« وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ » (٥)

عزيز :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » (٦)

(١) الأنعام - آية : ١٥٥ .

(٢) الأنعام - آية : ٩٢ .

(٣) الإسراء - آية : ٨٨ .

(٤) الحجر - آية : ٨٧ .

(٥) الزخرف - آية : ٤ .

(٦) فصلت - آية : ٤١ .

مفصل على علم :

« وَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »^(١) .
 « كِتَابٌ نُفِّصَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »^(٢) .

أحسن القصص :

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ،
 وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ »^(٣) .

لا عوج له :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا »^(٤) .

يهدى إلى الحق :

« وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا
 أَنصَبُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا
 أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، وَإِلَىٰ طَرِيقِ
 مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ
 مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ ، فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ،
 وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ »^(٥) .

(١) الأعراف - آية : ٥٢ .

(٢) فصلت - آية : ٣ .

(٣) يوسف - آية : ٣ .

(٤) الكهف - آية : ١ .

(٥) الأحقاف - آية : ٢٩ - ٣٢ .

تلاوته :

« إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ » ^(١)

نذير :

« تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » ^(٢)

أنزل بالحق :

« إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » ^(٣)

أحسن الحديث :

« اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخُشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » ^(٤)

نذير لكل من بلغه :

« قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوْحِيَ إِلَيَّ

(١) فاطر - آية : ٢٩ .

(٢) الفرقان - آية : ١ .

(٣) الزمر - آية : ٤١ .

(٤) الزمر - آية : ٢٣ .

هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لِنُشْهِدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ،
قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ « (١) .

تذكرة :

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ
يَخَافُ وَعِيدِ » (٢) .

مصدقاً لما بين يديه :

« نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ » (٣) .

أثره وتأثيره :

« لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ،
وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (٤) .
« وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، أَوْ كُلُّهُ بِهِيءِ الْمَوْتَى ،
بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَلَمْ يَسْسِ الَّذِينَ آمَنُوا ، أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ
جَمِيعًا ، وَلَا يُزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ
دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » (٥) .

(١) الأنعام - آية : ١٩ .

(٢) ق - آية : ٤٥ .

(٣) آل عمران - آية : ٣ .

(٤) الحشر - آية : ٢١ .

(٥) الرعد - آية : ٣١ .

«وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا» (١)

من آداب التلاوة :

«فَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» (٢) .
«وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (٣) .
«وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا» (٤) .
«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (٥) .

حكم :

«أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى حَكَمًا ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» (٦) .

حزن الرسول صلى الله عليه وسلم على هجره :

«وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا» (٧)

والآن نذكر بعض الطرائف التي رويت متعلقة ببعض آيات القرآن :

(١) الإسراء - آية : ٤٥ .

(٢) النحل - آية : ٩٨ .

(٣) الأعراف - آية : ٢٠٤ .

(٤) الإسراء - آية : ١٠٦ .

(٥) النساء - آية : ٨٢ .

(٦) الأنعام - آية : ١١٤ .

(٧) الفرقان - آية : ٣٠ .

عن الشعبي قال : لقي عمر بن الخطاب ركباً في سفر ، فهم بن مسعود ، فأمر رجلا يناديهم : من أين القوم ؟ قالوا : أقبلنا من الفج العميق ^(١) ، نريد البيت العتيق ^(٢) .

فقال عمر : إن فيهم لعلماً ، وأمر رجلا أن يناديهم : أى القرآن أعظم ؟ فأجابه عبد الله :

« اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » ^(٣)
قال : نادهم ، أى القرآن أحكم ؟

فقال ابن مسعود :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ^(٤) .
قال : نادهم ، أى القرآن أجمع ؟

فقال : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .
(٢) والبيت العتيق يشير إلى قوله تعالى : « ثم ليقضوا نفوسهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » .

(٣) سورة البقرة - آية : ٢٥٥ .

(٤) النحل - آية : ٩٠ .

(٥) الزلزلة - آية : ٧ ، ٨ .

فقال : نادهم : أى القرآن أحزن ؟
فقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » (١) .

فقال : نادهم ، أى القرآن أرحمى ؟
فقال : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ » (٢) .
فقال : أفیکم ابن مسعود ؟ قالوا : نعم (٣) أخرجه عبد الرزاق فى تفسیره بنحوه .

وأخرج عبد الرزاق أيضاً ، عن ابن مسعود قال : أعدل آية فى القرآن :
« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعْظُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (٤)
وأحكم آية :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .
وأخرج الحاكم عنه قال : إن أجمع آية فى القرآن للخير والشر :
« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَالْبَغْيِ ، يَعْظُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .
وأخرج عنه قال : ما فى القرآن آية أعظم فرجاً من آية فى سورة الغرف :
(أى سورة الزمر) :

(١) النساء - آية : ١٢٢ .

(٢) الزمر - آية : ٥٣ .

(٣) انظر الإتيان للسيوطى .

(٤) النحل - آية : ٩٠ .

« قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ، لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

وما في القرآن آية ، أكثر تفويضاً من آية في سورة النساء القصوى :
 « وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » (١) .

وأخرج أبو ذر الهروي في فضائل القرآن من طريق يحيى بن يعمر ، عن ابن مسعود ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أعظم آية في القرآن » :

« اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ، إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » .

وأعدل آية في القرآن :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعْظُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

وأخوف آية في القرآن : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

وأرجى آية في القرآن : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

شهر رمضان والقرآن :
 « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمٌ » .

وقراءة القرآن في شهر رمضان من أسمى القربات ، وهي تتناسب مع شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبيانات من الهدى والفرقان ، والله سبحانه وتعالى يقول عن القرآن :

« إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ »^(١) . قال :

هو القرآن ، ليس كلهم رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث -
 فيما رواه البخارى - :

يُؤمُّ الناس أقرؤهم لكتاب الله .

وما ذلك إلا أنه أعلم بأحكام الله : فالعالم بالقرآن عالم بجملة الشريعة .
 وعن عائشة رضوان الله عليها ، أن من قرأ القرآن فليس فوقه أحد .
 وعن عبد الله قال :

« إذا أردتم العلم فتوروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين »^(٢) .

وعن عبد الله بن عمر قال : « من جمع القرآن فقد حمل أمراً عظيماً ،
 وقد أدرجت النبوة بين جنبيه ، إلا أنه لا يوحى إليه » .

وفي رواية عنه : « من قرأ القرآن ، فقد اضطربت النبوة بين جنبيه .
 وما ذلك إلا أنه جامع لمعاني النبوة » اهـ .
 والأحاديث في القرآن وفضله كثيرة .

(١) الآية : « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا
 يكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » . آل عمران : ١٩٣ .
 (٢) فتوروا القرآن : أى تدبروه وافهموا معناه العميق .

عن أبي أمامة - فيما رواه مسلم - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« اقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيابتان ، أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة » (١) ؛ وأخرج الدارمي في سننه ، عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : إن هذا القرآن مآذبة الله ، فتعلموا من مآذبه ما استطعتم .

إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعجب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقض عجايبه ، ولا يخلق على كثرة الرد . فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات . أما إني لا أقول : ألم ، ولكن ألف ولام وميم .

وأخرج الدارمي أيضاً في سننه عن الحارث قال :

دخلت المسجد فإذا أناس يخوضون في أحاديث ، فدخلت على عليّ فقلت : ألا ترى أن أناساً يخوضون في الأحاديث في المسجد فقال : قد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : أما أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن » قلت : وما المخرج منها ؟ قال :

كتاب الله . فيه نبأ ما قبلكم ، ونخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل . هو الذي من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو

الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيع به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الدِّ ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا » هو الذى من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

فضله^(١) .

قال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تبارك وتعالى : « من شغله قراءة القرآن ، عن دعائى ومسألتى أعطيته أفضل ثواب الشاكرين »^(٢) .
وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك أسود لا يهولهم فزع ، ولا ينالهم حساب حتى يفرغ ما بين الناس : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل ، ورجل أم به قوماً وهم به راضون . »
وقال صلى الله عليه وسلم : « أهل القرآن أهل الله وخاصته »^(٣) .
وقال صلى الله عليه وسلم : « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، فقيل يا رسول الله ، وما جلاؤها ؟ فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت » .
وقال صلى الله عليه وسلم : « لله أشد أذنأ إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته »^(٤) .

قال أبو أمامة الباهلى : اقرأوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة : فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن .

(١) من المراجع التى رجعت إليها ابتداء من الحديث عن فضل القرآن إلى نهاية هذا الفصل : كتاب الإبتقان للسيوطى ، وكتاب الإحياء للإمام الغزالى ، وكتاب محاسن التأويل للقاسمى ، وكتاب الترغيب والترهيب للمندرى ، وكتابتنا : العبادة .
(٢) رواه الترمذى وقال حسن غريب .
(٣) روته كتب السنة بإسناد حسن .
(٤) رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم .

وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فانثروا القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين .

وقال أيضاً : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن ويعجبه ، فهو يحب الله سبحانه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال عمرو بن العاص : كل آية في القرآن درجة في الجنة ، ومصباح في بيوتكم .

وقال أيضاً : من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه .

وقال أحمد بن حنبل : رأيت الله عز وجل في المنام فقلت : يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك ؟ قال : بكلامي يا أحمد . قال :

قلت : يا رب يفهم أو يفهم ؟ قال : يفهم وبغير فهم .

وقال الفضيل بن عياض : ينبغي لحامل القرآن ألا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم ، فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه ، وقال أيضاً : حامل القرآن حامل راية الإسلام ، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ، ولا يسهو مع من يسهو ، ولا يلغوم مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن .

ويروى أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اقرأ على القرآن فقرأ عليه : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعْظُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » . فقال له : أعد ، فأعاد ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمورق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر^(١) .

(١) رواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال الوليد بن المغيرة بدل =

ولقد تحدث الإمام السيوطي في كتاب الإتيقان ، في : النوع الخامس والسبعون في خواص القرآن .

فقال :

أخرج ابن ماجه وغيره من حديث ابن مسعود : « عليكم بالشفاءين القرآن والعسل » .

وأخرج أيضاً من حديث علي : « خير الدواء القرآن » .

وأخرج أبو عبيد عن طلحة بن مصرف ، قال : « كان يقال إذا قرئ القرآن عند المريض وجد لذلك خفة » .

وأخرج البخاري من حديثه أيضاً قال : « كنا في مسير لنا ، فنزلنا فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحي سليم (١) ، فهل معكم راق ؟ فقام معها رجل ، فرقاه بأمر القرآن فبرئ ، فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وما كان يدريه أنها رقية ! » .

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة : « أن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان » .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بسند حسن عن أبي بن كعب قال :

كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء أعرابي فقال : يا نبي الله ، إن لي أخاً وبه وجع ، قال : وما وجعه ؟ قال : به لمم ، قال : فأتني به ، فوضعه بين يديه ، فعوذته النبي صلى الله عليه وسلم ، بفاتحة الكتاب ، وأربع آيات من أول سورة البقرة ، وهاتين الآيتين ، « وإلهم

= خالد بن عقبة وكذا ذكره ابن إسحاق في السيرة بنحوه .

(١) أي مريض .

إِلَهُ وَاحِدٌ، وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ ، وَثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَآيَةٌ مِنْ آلِ عِمْرَانَ :
 « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا
 إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (١) .

وَآيَةٌ مِنَ الْأَعْرَافِ : « إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ
 وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسْحَرَاتٌ بَأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ » (٢) .

وَآخِرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ :

« فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » (٣) .
 وَآيَةٌ مِنْ سُورَةِ الْجِنِّ : « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا » (٤) .
 وَعَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الصَّافَاتِ . وَثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ . وَقُلْ هُوَ
 اللَّهُ أَحَدٌ وَالْمَعُودَتَيْنِ ، فَقَامَ الرَّجُلُ كَأَنَّهُ لَمْ يَشْكُ قَطْ .
 وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قِصَّةِ الصَّدَقَةِ : « إِنْ الْجِنِّي قَالَ لَهُ :
 إِذَا أُوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ
 حَافِظٌ ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تَصْبِحَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 « أَمَا إِنَّهُ صَدَقَهُ ، وَهُوَ كَذُوبٌ » .

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ : « دَعَا ذِي النُّونِ
 إِذْ دَعَاهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ : « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
 الظَّالِمِينَ » لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ .

(١) آل عمران - آية : ١٨ .

(٢) الأعراف - آية : ٥٤ .

(٣) المؤمنون - آية : ١١٦ .

(٤) الجن - آية : ٣ .

وأخرج الترمذى من حديث أبي هريرة : « من قرأ الدخان كلها ، وأول غافر إلى « إليه المصير » . وآية الكرسي حين يمسى حفظ بها حتى يصبح ، ومن قرأها حين يصبح حفظ بها حتى يمسى » رواه الدارمى بلفظ « لم ير شيئاً يكرهه » .

وأخرج أبو داود عن ابن عباس قال : إذا وجدت في نفسك شيئاً يعنى الوسوسة فقل : « هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » ^(١) .

وقال الربيع : سألت الشافعى عن الرقية فقال : لا بأس أن يرقى بكتاب الله ، وما يعرف من ذكر الله .

وقال ابن بطال : فى المعوذات سر ليس فى غيرها من القرآن ، لما اشتملت عليه من جوامع الدعاء التى تعم أكثر المكروهات ، من السحر والحسد وشر الشيطان ووسوسته وغير ذلك ، فلهذا كان صلى الله عليه وسلم يكتفى بها .
وقال ابن القيم فى حديث الرقية بالفاتحة : « إذا ثبت أن لبعض الكلام خواص ومنافع ، فما الظن بكلام رب العالمين ، ثم بالفاتحة التى لم ينزل فى القرآن ولا غيره من الكتب مثلها ، لتضمنها جميع ما فى الكتاب ، فقد اشتملت على ذكر أصول أسماء الله وبجامعها وإثبات المعاد ، وذكر التوحيد والافتقار إلى الرب فى طلب الإعانة به والهداية منه ، وذكر أفضل الدعاء ، وهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ، والاستقامة عليه ، ولتضمنها ذكر أصناف الخلائق وقسمتهم إلى منعم عليه لمعرفة الحق والعمل به ومغضوب عليه لعدوله عن الحق بعد معرفته ، وضال لعدم معرفته له ، ومع ما تضمنته من

إثبات القدر والشرع والأسماء والمعاد والتوبة وتركبة النفس وإصلاح القلب ،
والرد على جميع أهل البدع .

وحقيق بسورة هذا بعض شأنها أن يستشفى بها من كل داء « أ هـ .

ومع هذه الفوائد المحققة للقرآن وفي القرآن ، فإنه يجب ألا ننسى أنه نزل
أولا وبالذات للهداية ، ولإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ولهذا
المهام الكبرى التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكثيرة التي
وصفه بها والتي أتينا بها من أجل التنبيه على أوصافه وغاياته ، وما أنزل من
أجله ، ولهذا كان لا بد من :

« التدبر في القرآن :

عن أبي ذر قال : « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة ، فقام
بآية يرددها وهي « إِنَّ تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ » .

وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)^(١) .
وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية (وَامْتَأَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) .

التفهم ، وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، إذ القرآن يشتمل
على ذكر صفات الله عز وجل ، وذكر أفعاله ، وذكر أحوال الأنبياء عليهم
السلام ، وذكر أحوال المكذبين لهم ، وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره
وزواجره ، وذكر الجنة والنار^(٢) .

(١) الآية : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » . الجاثية : ٢١ .

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي .

أما صفات الله عز وجل ، فكقوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

وقوله تعالى : (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ)^(١) فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات ليكشف له أسرارها ، فتحتمل معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين ، وإليه أشار على رضى الله عنه بقوله : (ما أسرى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كتبه عن الناس إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً في كتابه) . فلتكن حريصاً على طلب ذلك الفهم .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخريين ، فليشور^(٢) القرآن ، وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته ، إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أموراً لا تائقه بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها .

وأما أفعاله^(٣) تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها . فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل ، وجلاله ، إذ الفعل يدل على الفاعل ، فتدل عظمته على عظمته ، فينبغى أن يشهد فى الفعل المفاعل دون الفعل ، فمن عرف الحق ، رآه فى كل شىء ، إذ كل شىء فهو منه وإليه ، وبه وله ، فهو الكل على التحقيق ، ومن لا يراه فى كل ما يراه ، فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شىء ما خلا الله باطل ، وأن كل شىء هالك إلا وجهه ، لأنه سيبطل فى ثانى الحال ، بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو ، إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته ،

(١) سورة الحشر آية : ٢٣ .

(٢) ثور القرآن ، أى يبحث عن علمه .

(٣) انظر كتاب : إحياء علوم الدين .

فيكون له بطريق التبعية ثبات ، وبطريق الاستقلال بطلان محض .
وهذا مبدأ من مبادئ علم المكاشفة ^(١) . ولهذا ينبغي إذا قرأ التالى
قوله عزوجل :

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ » ^(٢) . « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ » . « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي
تَشْرَبُونَ » . « أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ » .

فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرق والمنى ، بل يتأمل فى المنى وهو
نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم ينظر فى كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق
والعصب ، وكيفية تشكّل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد
والرجل والكبد والقلب وغيرها ، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من
السمع والبصر والعقل وغيرها ، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة
من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة ، كما قال تعالى :

« أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ » ^(٣) . فيتأمل
هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التى منها صدرت
هذه الأعاجيب ، فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع .

وأما أحوال الأنبياء ، عليهم السلام : فإذا سمع منها أنهم كيف كذبوا
وضربوا وقتل بعضهم ، فليفهم منه صفة الاستغناء لله عزوجل عن الرسل
والمرسل إليهم ، وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر فى ملكه شيئاً ، وإذا سمع
نصرتهم فى آخر الأمر فليفهم قدرة الله عزوجل ، وإرادته لنصرة الحق .
وأما أحوال المكذبين : كعاد وثمود وما جرى عليهم ، فليكن فهمه

(١) المصدر السابق .

(٢) الواقعة - آية : ٦٣ .

(٣) يس - آية : ٧٧ .

منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته ، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه ، وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل ، فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية ، وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن ، فلا يمكن استقصاء ما يفهم منها لأن ذلك لا نهاية له ، وإنما لكل عبد منه بقدر رزقه ، وليقدر القارئ أنه المقصود بكل خطاب في القرآن ، فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهى والمأمور ، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك ، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود ، وإنما المقصود ليعتبر به ، وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه ، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمه ، ولذلك قال تعالى : « وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » (١) فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء ، وصبرهم على الإيذاء ، وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى ، وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله خاصة ، بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ، ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب ، فقال تعالى : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظِمَكُمْ بِهِ » (٢) .

وقال عز وجل : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .
« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » (٣) . « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ » (٤) .

(١) هود آية : ١٢٠ .

(٢) « واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم » البقرة : ٢٣١ .

(٣) « ولعلهم يتفكرون » النحل - آية : ٤٤ .

(٤) سورة محمد - آية : ٣ وأولها : « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا =

« وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ »^(١) . « هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »^(٢) . « هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ »^(٣) .

وإذا قصد بالمخاطب جميع الناس فقد قصد الآحاد ، فهذا القارئ الواحد مقصود ، فما له ولسائر الناس ؟ .
فليقدر أنه المقصود بقوله تعالى : « وَأُوحِيَ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ »^(٤) .

قال محمد بن كعب القرظي :

من بلغه القرآن ، فكأنما كلمه الله ، وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله ، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه ، الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه ، ولذلك قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتت من قبل ربنا عز وجل بعهوده ، تندبرها في الصلوات ، ونقف عليها في الخلوات ، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات ، وكان مالك بن دينار يقول : ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن ؟ .
إن القرآن ربيع المؤمن ، كما أن الغيث ربيع الأرض .

= اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم .

(١) الآية : « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ، من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » الزمر ٥٥ .

(٢) سورة الجاثية - آية : ٢٠ .

(٣) آل عمران - آية : ١٣٨ .

(٤) الآية : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ،

قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون » الأنعام : ١٩ .

وقال قتادة :

لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان ، قال الله تعالى :
« هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » ^(١) .

ومن آداب التلاوة :

أن يقول في مبتدأ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان
الرجيم ، رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون .
وليقرأ قل أعوذ برب الناس ، وسورة الحمد لله ، وليقل عند فراغه من
القراءة ، صدق الله تعالى ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم
أنفعنا به ، وبارك لنا فيه ، الحمد لله رب العالمين ، وأستغفر الله الحي
القيوم . وفي أثناء القراءة ، إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر ، وإذا مر بآية
دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإن مر بمرجو سأل ، وإن مر بمخوف استعاذ .
يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول : سبحان الله نعوذ بالله ، اللهم ارزقنا ،
اللهم ارحمنا .

قال حذيفة :

« صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتدأ سورة البقرة ،
فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ، ولا بآية عذاب إلا استعاذ ، ولا بآية
تنزيه إلا سبح » .

وعن الليث بن سعد ، عن أبي مليكة عن يعلى بن مملك أنه سأل
أم سلمة عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة
حرفاً حرفاً ^(٢) .

(١) أول الآية : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ... » الآية من سورة

(٢) رواه الترمذى ، وأبو داود ، والنسائي .

وعن ابن جريج ، عن أبي مليكة ، عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقطع قراءته يقول : « الحمد لله رب العالمين » ثم يقف ثم يقول « الرحمن الرحيم » ثم يقف^(١) .

وعن قتادة ، قال : سئل أنس : كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كانت مداً مداً ، ثم قرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، بمد بسم الله ، ومد بالرحمن ومد بالرحيم »^(٢) .

وعن حذيفة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل العشق ، ولحون أهل الكتابين ، وسيجيء بعدى قوم يرجعون بالقرآن ، ترجيع الغناء والنواح ، ولا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم ، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم »^(٣) .

وعن طاووس مرسلًا قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم :

أى الناس أحسن صوتاً للقرآن وأحسن قراءة ؟ قال :

« من إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله »^(٤) .

ومن آداب التلاوة :

يقول الله سبحانه وتعالى :

« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

ويقول سبحانه في تعريف المؤمنين :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ

(١) رواه الترمذى . (٢) رواه البخارى .

(٣) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ، وروزين فى كتابه .

(٤) رواه الداريمى .

عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

والأمر بالاستماع والإنصات للذين تفيض بسببهما رحمة الله على السامع المنصت إنما كان من أجل التدبير للمعاني الكريمة التي انطوت عليها الآيات القرآنية ، ومن أجل الاتعاظ بها والتزام الحدود التي سنتها والقواعد التي أتت بها ، وهي لكل ذلك إذا تليت على المؤمنين زادتهم إيماناً .

وكلام الله سبحانه وتعالى له فعل السحر في خشية الله عند المؤمنين

يقول سبحانه :

« اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ » (١) .

والخشوع عند تلاوة القرآن ، والتزام السكينة والصمت عند تلاوته إنما يكون من قلب امتلاً بالإيمان ومحبة الله سبحانه وتعالى ، والخوف منه ، والرجاء فيه .

والله سبحانه وتعالى يبين أن الخشية من ثمار تلاوة القرآن أو سماعه ، بل إنه سبحانه يجبر أنه لو نزل القرآن على جبل لتمثل فيه الخشوع ، بل يصل الخشوع به إلى درجة التصدع ، يقول سبحانه :

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (٢) .

فالواجب إذن التزام التدبير والاتعاظ والتزام الهدوء والصمت ولا بأس من أن ينطق الإنسان مختاراً أو مضطراً عندما يمتلئ قلبه بمعنى من المعاني

(١) الزمر - آية : ٢٣ .

(٢) سورة الحشر - آية : ٢١ .

في سموه وجلاله ، أو بكيفية من كيفيات الأداء التي تتناسق مع المعنى رهبة
أورغبة ، ورحمة ورقة أو شدة وقوة ، لا بأس عند ذلك من أن يقول المستمع
متفاعلا مع الظروف سبحانه الله ، أو جل جلال الله ، أو سبحانه من هذا
كلامه ، أو أستغفر الله ، أو تبت إلى الله ، أو اللهم قتي عذابك ، أو اللهم
أفض علي من رحمتك ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ،
ذلك هو موقف المؤمنين عند تلاوة القرآن أو عند سماعه .

افْتَدِ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

كيف ؟

(١)

إذا أراد إنسان أن يدخل في رحاب :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق » .

إذا أراد إنسان أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فيحاول أن يقترب

ما استطاع من :

« إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ » .

إذا أراد الإنسان أن يدخل في معنى « الإسلام » .

فكيف يبدأ ؟

ما هي الخطوة الأولى ؟

ما الطريق ؟

إنه يبدأ بالدخول في النظام القرآني ، والدخول في النظام القرآني ،

معناه العزم المصمم على التخلي عما ليس بقرآن ، وهذا ما يسمى في العرف

الإسلامي أو النظام القرآني : « التوبة » .

ولقد أمر الله في القرآن بالتوبة وحث عليها وحبب فيها وأوجبها في بعض

الأحيان ..

والواقع أنها اللبنة الأولى في الطريق إلى الله . وهي اللبنة الأولى في طريق
إسلام الوجه لله .

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه تفضلا منه ورحمة . يقول سبحانه ،
في حديث قدسي ، وفي أسلوب كله رافة :

« يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً
فاستغفروني أغفر لكم » .

ويقول الله سبحانه وتعالى في صورة من تجلى الرحمة ، وسعة من
شمول الرافة بالعباد :

« قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » ^(١) .

ويلى هذه الآية الكريمة ما يبين الطريق إلى المغفرة والرحمة فيقول
سبحانه وتعالى :

« وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ » ^(٢) .
أى ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له ، ثم بين لهم الطريق الصحيح

الذي يلي التوبة إذا صدقت بقوله تعالى :

« وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَاتُّمَّ لَا تَشْعُرُونَ » ^(٣) .

والله سبحانه وتعالى في هذا يوجه الذين صدقوا في توبتهم إلى أن يتبعوا
أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق

(١) - سورة الزمر .

(٢) - سورة الزمر .

(٣) - سورة الزمر .

يستتبع كلاً من لوازمه أن يستقيم الإنسان على الطريق . والله سبحانه وتعالى بسد على الذين بين لهم الطريق باب المعاذير فيما بعد مهدياً تهديداً يقصد به حث الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من رحمن رحيم .
يقول سبحانه :

« أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » (١) .

فإذا ما قال الإنسان ذلك أو تعلق بأمثاله فإن الرد يأتيه من رب العزة ، حاسماً قوياً :

« بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآئِكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ » (٢) .

ثم بين الله سبحانه وتعالى حال الكافرين يوم القيامة فيقول :
« وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » .

ويحتم سبحانه هذه الآيات التي ترسم طريق المؤمن بما يبشر من اتباع الطريق وسلك سواء السبيل فيقول سبحانه :

« وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

والآن ، قد وضح الطريق فهو أولاً : التوبة ، وثانياً : اتباع أحسن ما أنزل الله . . .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم - متابعين للأوضاع الإسلامية - يبدأون أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح : لقد كانوا يبدأون أول

(١) ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - سورة الزمر .

(٢) ٥٩ - سورة الزمر .

شهر رمضان بالتوبة ، ويبدأون الحج بالتوبة . ولعل الكثير من ذوى البصائر قد لاحظوا أن الرحلة المباركة ، رحلة الإسراء والمعراج بدأت بشق الصدر ، وشق الصدر بالنسبة لنا : إنما هو التوبة الخالصة النصوح . لأن التوباً تطهر وطهر . وإذا تاب الإنسان فإن ذلك يكون بمثابة إتيان ملكين يشقان عن صدر الإنسان ويغسلانه بالثلج والبرد أو بماء زمزم : أى يطهرانه .
إن التوبة تطهر الإنسان من المعصية ، إنها تجب ما قبلها ، أى تزيله وتمحوه .

والتوبة التى من هذا النمط لها شروط لا بد من توافرها حتى تهبى الإنسان لشق الطريق إلى الله تهيئة موفقة .

يقول الإمام النووى من كتاب رياض الصالحين :

قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب .

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثانى : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم على ألا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة . هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنته منه أو طلب عفوهُ ، وإن كانت غيبة استحلها منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب .

فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقي .

وقد تصافت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأئمة على وجوب التوبة . .

قال الله تعالى :

« وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

وقال تعالى :

« اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » .

وقال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً » .

هذا فيما يتعلق بالتوبة . وبقى الحديث فيما يتعلق باتباع أحسن ما أنزل الله .

(٢)

إن اتباع أحسن ما أنزل الله يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الداخلين في الإسلام . أعني مواد البيعة .

روى الإمام البخارى رضى الله عنه من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه . وكان عبادة شهد بدرًا ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، وحوله جماعة من أصحابه :

« بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بهتاناً تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف .

فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء الله عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك » .

وروى الإمام أحمد من حديث سلمى بنت قيس ، وكانت إحدى حالات رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقد صلت معه القبلتين وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجار ، قالت :

جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبايعه في نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأق بيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، قال : « ولا تغششن أزواجكن » .

قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن :

ارجعى فسلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ما غش أزواجنا ؟

فسألته ، فقال :

« تأخذ ماله فتحابي به غيره » .

ولقد وردت بيعة النساء في القرآن الكريم ، يقول تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنَّهُنَّ شَيْئًا ، وَلَا يَسْرِقْنَ ، وَلَا يَزْنِينَ ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ، وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ . وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ومما يفصل هذه البيعة قوله تعالى :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ الْإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكَمُ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمُ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وإذا أردنا إجمالاً للتعاليم الإسلامية من القرآن الكريم فهو قوله

تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

وهذه الآية الكريمة ألف فيها الإمام العز بن عبد السلام - كما يقول صاحب كتاب النصيحة العلوية - كتاباً بين فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية ، وبين ذلك في سائر الأبواب الفقهية وسمى ذلك « كتاب الشجرة » .

هذا والقصص التالية تلتى بعض الأضواء على هذا الموضوع : موضوع اتباع أحسن ما أنزل الله .

لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، ودعا إلى الإسلام ، بعث أكرم بن صيني ابنه : « حبيشاً » فاتاه ببحره ، فجمع بني تميم ، وقال لهم - فيما قال :

إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتاني ببحره ، وكتابه يأمر بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف « عرف » ذوو

الرأى منكم : أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى - ترك ما ينهى عنه .
ثم يقول هذه الكلمات الرائعة :

« إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديناً ، لكان فى أخلاق
الناس حسناً » .

وسبيل الله كما رآه أكثم :

توحيد الله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والأخذ بمحاسن
الأخلاق .

وكلمة : الأخذ بمحاسن الأخلاق كلمة جميلة جمعت فاستغرقت ،
وشملت فعمت .

أما كلمته الرائعة حقاً . السامية حقاً ، العجيبة فى صدقها وإيجازها
وفصاحتها ، فهى قوله :

« إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديناً ، لكان فى أخلاق
الناس حسناً » .

ولما هاجر المسلمون هجرتهم الأولى فى سبيل الله إلى أرض الحبشة لم
يكتف القريشون منهم بخروجهم وهجرتهم بدينهم تاركين الأهل والوطن
والمال . ولكنهم أرسلوا وفداً إلى النجاشى فيه عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو
ابن العاص . لرد المهاجرين إلى مكة ليعذبوهم من جديد ، ولما التقى الوفد
بالنجاشى قال له عمرو بن العاص : إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ،
فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه
نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم : من آبائهم وأعمامهم ،
وعشائرتهم لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا « أى أبصر بهم » وأعلم بما
عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشي كلامهم رأى أن من الحكمة : ألا يسلم إليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم ، وحجتهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

فكان الذي كلمه : جعفر بن أبي طالب ، قال له : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف : فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا : يعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لتوحيده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآبائنا من دونه : من الحجارة والأوثان . . .
أمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .
« وعدد عليه أمور الإسلام » .

فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، ولم نشرك به شيئا ، وحرمتنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا . . . فعدا علينا قومنا : فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك . . .
ولما قرأ عليه صدراً من سورة مريم ، بكى النجاشي ثم قال :

إن هذا والذي جاء به عيسى : ليخرج من مشكاة واحدة .
ثم التفت إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص فقال لهما :
« انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما » .

لقد علم النجاشي ، فور سماعه ، المبادئ الإسلامية .
« أن هذه المبادئ حق ، وأنها آيات بينات لا يخفى صدقها على أصحاب
الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد ، صلوات الله عليه وسلامه :
إنما يصدر من المنبع الذي كانت تصدر عنه رسالة عيسى ، عليه السلام » .
وسبيل الله كما صوره سيدنا جعفر : توحيد الله وعبادته وحده ،
وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف
عن المحارم والدماء .

وإقامة الصلاة وأداء الزكاة ، والصيام . .
والابتعاد عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . .
وكل ذلك اتباع لأحسن ما أنزل الله .

(٣)

أول عقد من عقود البيعة

وأول عقد من عقود البيعة عدم الإشراف بالله . .
وحيثما يسمع الناس الحديث عن « عدم الإشراف بالله » يتجه ذهنهم
- في الأغلب الأعم منهم - إلى نقي تعدد الآلهة . إن الذهن يتجه إلى أن
هذه العقيدة التي كانت عند اليونان في عهودهم القديمة من تعدد الآلهة
وعند العرب في جاهليتهم من عبادة الأصنام . . . باطلة . .

لقد جعل اليونان إلهاً لكل ظاهرة من ظواهر الكون الكبرى ، وكذلك فعل قدماء المصريين في عامتهم وشعبهم ، وكذلك فعل وثنيو العرب . بل إن الإنسانية وقد بدأت بالتوحيد الخالص على يد آدم عليه السلام قد انحرفت سريعاً إلى التعدد فأخذت الأنبياء والرسل تنزل تبعاً مبشرة بالتوحيد مجاهدة في سبيل منع التعدد وفي سبيل القضاء على الوثنية المنتشرة .

ولقد كان عدد الأنبياء والرسل كثيراً كثرة تتناسب والانحراف المتوالى من الإنسانية منذ ظهورها ، لقد نزل الأنبياء جميعاً يبشرون بالتوحيد ، وكان كل نبي يدعو أمته إلى مثل ما دعا محمد صلى الله عليه وسلم الإنسانية جمعاء :

« أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي كُنتُ مِنْكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ »^(١) .

وسورة يونس وسورة هود والكثير من سور القرآن على وجه العموم تتحدث عن دعوة الرسل قومهم إلى التوحيد : يقول سبحانه :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلَمِ »^(٢) .

ويقول سبحانه :

« وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ »^(٣) .

(١) هود - ٢ .

(٢) هود : ٢٥ - ٢٦ .

(٣) هود : ٥٠ .

ويقول سبحانه :

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ » (١) .

وهكذا نرى كل نبي يدعو إلى عدم الشرك بالله أنه يدعو إلى عبادة الله وحده ، فإذا اتجه الذهن إلى عدم تعدد الآلهة ، وإلى الوجدانية فإن هذا الاتجاه طبيعي ، وهو اتجاه حق . .

وهذا النوع من الشرك هو الذي يقول الله سبحانه وتعالى عنه :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

وهو الذي ينفيه الله منطقياً بقوله :

« لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

ويقوله :

« مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَنْ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » .

ولكن التوحيد ليس معناه عدم التعدد فحسب ، كلا ، ، وهو وإن كان من معانيه عدم التعدد فإن دائرته تتسع فتشمل أموراً أخرى .

يقول أبو سعيد الخراز :

« فمن شرح ذلك : أن يكون العبد يريد الله عز وجل بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته وكلها ظاهرها وباطنها ، لا يريد بها إلا الله وحده ،

قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ، راعياً لهما ، قاصداً إلى الله تعالى بجميع أمره .

وهذا الذى يقوله الإمام أبو سعيد الخراز رضى الله عنه هو بعض معانى :

« أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » .

إن « اقرأ باسم ربك الذى خلق » توحيد خالص ، والتوحيد الخالص لا رياء فيه والله سبحانه وتعالى ، يقول : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ » .

وإن المادة الأولى من البيعة الإسلامية تعنى - فيما تعنى من معان - تجريد القصد لله تعالى فى كل عمل وإلا فلا ثواب ولا قبول للعمل :

« فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

ولقد تحدث القرآن عن الإخلاص والصدق ، وتحدث عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لا يكاد يحصى من النصوص والأحاديث . والتوحيد الخالص والشرك يبدآن بالنية : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مبيناً أن قيمة العمل فى الخير والثواب والقبول تتبع النية :

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنية » . وفى رواية بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .
رواه البخارى ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى .

فإذا صدقت النية استقام أمر المسلم فيما بعد ، وإذا هفا الإنسان هفوة فعليه أن يتدارك الأمر بالتوبة وصدق النية من جديد .

وصدق النية شرط من الشروط التي يترتب عليها قبول العمل .

عن الضحاک بن قیس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 إن الله تبارك وتعالى يقول : « أنا خير شريك ، فمن أشرك معي شريكاً
 فهو لشريكى ، يأبى الناس أخلصوا أعمالكم ، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل
 من الأعمال إلا ما خلص له ، ولا تقولوا هذه لله وللرحم ، فإنها للرحم ،
 وليس لله فيها شيء ، ولا تقولوا هذه لله ولجوهكم ، فإنها لجوهكم ، وليس لله
 منها شيء » . رواه البزار بإسناد لا بأس به ، والبيهقي .

وعن أبي أمامة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ، ماله ؟ فقال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم « لا شيء له » فأعادها ثلاث مرات ، ويقول رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : « لا شيء له » ثم قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله
 عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتغى (به) وجهه .

رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد .

والواقع أن الإسلام يعلق أهمية كبيرة على إخلاص النية لله سبحانه
 وتعالى فإن في إخلاصها لله صدق السريرة وطهارة القلب وفيها انتفاء التملق
 والزلنى وبها تنتفي الزلة ويتنى الزيف والرياء ومن أجل ذلك حذر رسول الله
 صلى الله عليه وسلم من الرياء تحذيراً شديداً . وحث على الصدق والإخلاص
 في صور شتى .

والحديث التالي قدروى بصورة متعددة ، وروى معناه بصور كثيرة ،

ورواه ثقات الحديثين :

عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
 « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به ،

فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جرى ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأثى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأثى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . « . رواه مسلم والنسائي ، ورواه الترمذي وحسنه ، وابن حبان في صحيحه وكلاهما بلفظ واحد .

ولقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيداً فريداً يدعو إلى التوحيد بكل معانيه ، ويعلم الحق في وجه الباطل ، ويدعو إلى الله في وسط كله شرك ، ويدعو إلى تحطيم الأصنام في بيثة تعبد الأصنام ، ودعوته صلوات الله عليه وسلامه ، ورسالته إلى العالم أجمع : إنما كان أساسها التوحيد ، والإسلام إنما هو دين التوحيد ، وليس للتوحيد معنى إلا الإيمان الصادق اليقيني بأن المهيمن على الكون والمتصرف فيه إنما هو الله سبحانه ، وإنه لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوا أى إنسان بشيء ما نفعوه إلا بشيء قد قدره الله له ، ولو اجتمع أهل السموات والأرض على أن يضرروا أى إنسان بشيء ، ما ضرره إلا بشيء قد قدره الله

وإذا كان الأمر كذلك ، وهو كذلك لا محالة ، فإنه لا يجتمع الإيمان الصادق والخوف في قلب المؤمن .

التوحيد والشجاعة الأدبية :

والتوحيد إذن هو الأساس الأول الأصيل للشجاعة الأدبية كما أنه الأساس الحافز لكثير من الفضائل أو لكل الفضائل .

وتشبيهاً للشجاعة الأدبية ، وحفاظاً على استمرارها بين الله تعالى الأسباب التي تجعل الشخص يجبن عن قول الحق ويتراجع في إعلان الصواب ، وترجع هذه الأسباب إلى أمرين :

الأمر الأول : هو ما يمكن أن يعبر عنه بهم الرزق أو خوف الفقر ، وقد بين الله تعالى ، أن الرزق مقسوم ، وأنه محدود ، وأنه ما كان لك فسوف يأتيك ، وما كان لغيرك فلن تناله .

« وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ، فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » .

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا . وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

ومن الحق أن الإسلام يحث على العمل ويشجع على الأخذ بالأسباب وإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، « ولأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يتكفف الناس ، واليد العليا خير من اليد السفلى » .

ومع ذلك فإن الرزق في يد الله ، ولن يمنع الرزق مانع مهما كان جبروته وسلطانه ، والله غالب على أمره ، وهو سبحانه القوى العزيز القهار .

أما الأمر الثاني الذى يخلد بعض الناس عن الشجاعة الأدبية ، فإنه خوف الموت ، وهو خوف لا موضع له ، فالله قد حدد الآجال ، ولو كان الناس فى بروج مشيدة لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم التى يقتلون فيها : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

فالأجال والأرزاق بيد الله ، وكل فكرة أو رأى أو همس خافت فى النفس يخالف ذلك ، فإنما هو شرك .

وانظر إلى هذه الصورة الكريمة للشجاعة الأدبية التى ربها التعاليم القرآنية ، وهى أن يقوم رجل بين يدي سليمان بن عبد الملك فيقول له سأطلق لساني بما خسرته عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى ، إنه قد اكتنفتك رجال أساغوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة ، وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على من ائتمنك الله عليه فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً ، والأمة كسفاً وخسفاً ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا غيره .

وإن من الصور الكريمة للشجاعة الأدبية ، أن يتقبل الإنسان الحق ، وكما تكون الشجاعة الأدبية ، قول الحق ، تكون قبول الحق .

وإذا صدقت النية كان الإخلاص ، وكانت الثقة فى الله ، وكان الاتجاه الدائم نحوه . فكانت العزة به .

وللإخلاص أهميته الكبرى فى الإسلام ، حتى لقد نادى رجل مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : ما الإيمان ؟ قال : الإخلاص . .

وعن معاذ بن جبل أنه قال - حين بعث إلى اليمن - : يا رسول الله
أوصني ، قال صلى الله عليه وسلم : « أخلص دينك يكفك العمل القليل »
رواه الحاكم . وقال صحيح الإسناد :
وإذا ما صدقت النية وتوافر الإخلاص تقبل الله العمل ومنح الله
صاحبه الثواب . وكان عمله وسيلة له في النجاة في الدنيا والآخرة .

عن ابن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ، حتى أوامهم المبيت إلى غار ،
فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل ، فسدت عليهم الغار ، فقالوا :
إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

فقال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق
قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى^(١) بى طلب شجر يوماً فلم أرح^(٢) عليهما حتى
ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً
أو مالاً ، فلبثت والقذح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر - زاد
الرواة « والصبية يتضاغون عند قدمي » - فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم
إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ،
فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منها . .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : قال الآخر : اللهم كانت لى ابنة عم
كانت أحب الناس إلى فأردتها عن نفسها ، فامتنعت منى ، حتى أمت^(٣)
بها سنة من السنين ، فجاءتني ، فأعطيها عشرين ومائة دينار ، على أن تخلى

(١) نأى بى : بعدى .

(٢) لم أرح عليهما : يريد لم أرجع إليهما .

(٣) أمت : تزلت . تزلت بها سنة من السنين الجداء .

بينى وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لا يحل لك أن تفرض الخاتم إلا بحقه ، فتخرجت^(١) من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها ، وهي أحب الناس إلى ، وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الثالث : اللهم « إني » استأجرت أجراً وأعطيتهم أجرتهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال لى : يا عبد الله أد إلى أجرى ؟ فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : يا عبد الله لا تستهزئ لى . فقلت : إني لا أستهزئ بك ، فأخذه كله ، فساقه كله ، فلم يترك منه شيئاً . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمضون .

وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينما ثلاثة نفر^(٢) ممن كان قبلكم يمضون إذ أصابهم مطر ، فأووا إلى غار ، فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه ، فقال أحدهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أجير عمل لى على فرق من أرز فذهب وتركه ، وإنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره إلى أن اشتريت منه بقرأ ، وأنه أتانى يطلب أجره ، فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق ، فساقتها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ، فانساحت عنهم

(١) تخرجت : خفت أن أرتكب الحرج ، وهو الإثم .

(٢) نفر : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة .

الصخرة . « فذكر الحديث قريباً من الأول » رواه البخارى ومسلم والنسائي .

وقوله : « وكنت لا أعقب قبلهما أهلاً أو مالا » ، الغبوق بفتح الغين المعجمة : هو الذى يشرب بالعشى .

ومعناه كنت لا أقدم عليهما فى شرب اللبن أهلاً ولا غيرهم .

يتضاغون بالضاد والغين المعجمتين : أى يصيحون^(١) من الجوع .

السنة : العام المقحط الذى لم تنبت الأرض فيه شيئاً ، سواء نزل غيث أم لم ينزل .

تفص الخاتم : هو تشديد الضاد المعجمة ، وهو كناية عن الوطء .

الفرق - بفتح الفاء والراء : مكبال معروف .

فانساحت : هو بالسین والحاء المهملتين ، أى تنحت الصخرة وزالت

عن فم الغار^(٢) .

وعن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض » . رواه ابن ماجه والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين والعمل الذى يتقبله الله ويشترط النية الصادقة فيه إما هو العمل الذى يكون فى الإطار الربانى ، إنه العمل الذى يقوم به الإنسان تلبية لتربية المرئى تلبية واعية شاعرة بأنها استجابة للأمر الإلهى فيما يتعلق بالإيجاب ، أو للنهى الإلهى فيما يتعلق بالسلب أى أنها تحقق ، فى جانبى

(١) فى نسخة « يضحون » بالضاد المعجمة والهم ، والمعنى قريب : عن كتاب الترغيب

والترهيب .

(٢) انظر فى ذلك كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى .

السلب والإيجاب من العمل ، لاقرأ باسم ربك الذى خلق .
وهذا العمل ، فى اليسير منه والعظيم إنما هو ما أتى به الوحي فى القرآن
وما فصلته السنة النبوية الكريمة : العملية منها والنظرية فإذا ما خرج الأمر
عن هذا الإطار فى النية أو فى الفعل فقد خرج عن أن يكون « قراءة باسم
ربك » والبيعة إنما هى بيعة للرسول صلى الله عليه وسلم .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » .

ويقول : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » .

والقرآن الكريم إذن ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمله ، كل
ذلك يمثل وحدة واحدة فى الإسلام .

ومن مواد البيعة التى صيغت فى أسلوب رقيق وفى إيجاز جميل قوله

تعالى :

« وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ .. »

والمعروف هو الخير الذى انطوى فى ثنايا التعاليم الإلهية ، وهو يتضمن

كل خير ، وبتحقيقه تتحقق الفضيلة فى أجمل صورها .

(٤)

والآن يأتى السؤال : إذا صدقت النية واتبع الإنسان أحسن ما أنزل إليه

من ربه فى العمل ، فما هو السبيل إلى اتباع أحسن ما أنزل الله فى القول ؟

ما هى القراءة باسم ربك فى القول ؟

إن الله سبحانه وتعالى بين لنا الإحسان فى القول ، كما بين لنا الإحسان

فى العمل . يقول سبحانه فى الجانين :

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

ويقول سبحانه :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ، نَزَّلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

ولقد ضرب الله لنا المثل في الكلمة الطيبة ، وفي الكلمة الخبيثة فقال

سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ، كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » ^(١) .

واتباع أحسن ما أنزل الله في القول ، إنما هو الدعوة إلى الله ، بنص الآية

الكريمة ، وإعلان الإسلام :

« وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

ومن ذلك الذكر ، والدعاء .

اقْتُلْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

وفي الذكر

إن شهر رمضان موسم من أنسب المواسم - إن لم يكن أنسبها - للذكر ،
ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى من حكمة فرضه : التقوى كما قال تعالى :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وختم الله سبحانه آيات الصيام بقوله :
« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » .
ولقد ورد الأمر بالتقوى كثيراً في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة .
يقول تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ » .

ولقد سئل الصحابي الجليل أبي بن كعب عن التقوى ، فقال للسائل :
أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟

قال : بلى

قال : فما عملت ؟

قال : شمرت واجتهدت .

قال : فذلك التقوى .

أى أن التقوى تسمير واجتهاد في الطاعات ، وحذر وتحذر واتقاء

لكل ما لا يرضى الله ورسوله ، إنها التزام النهج الرباني في كل ما يأتي الإنسان وفي كل ما يدع ، إنها التزام ما رسم الله في القول والصمت ، في الغضب والرضا ، في الغنى والفقر ، في الصحة والمرض ، في الحركة والسكون .
وقد فرض الله سبحانه وتعالى الصوم ليحقق الإنسان التقوى ويتحقق بها .

فإذا التزم الإنسان التقوى ، فإن الله سبحانه وتعالى يجعل له من كل ضيق فرجاً ، ومن كل همٍّ مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، يقول سبحانه :

« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »^(١) .

وإن مما يعين على التقوى وهو في الوقت نفسه من ثمار التقوى : الذكر . وقد حثنا الله سبحانه على الذكر في أسلوب أمر ، يقول سبحانه :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً » .
« وَأَذْكُرُوا رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ »^(٢) وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ » .

وحثنا سبحانه على الذكر في أسلوب أخذ ، يقول سبحانه :

« فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » .

ولقد أخرج الإمام البخاري ، رضى الله عنه ، من حديث قتادة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه قال :

قال الله عز وجل :

« يا ابن آدم ، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني

(١) الطلاق : آية ٣ .

(٢) الآصال جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب .

في ملاً ذكرك في ملاً خير منه ، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً ،
وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشى أتيتك هرولة .

ومن السبعة الذين يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله :
رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله .

وروى البيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب :
قال الله عز وجل « من شغله ذكرى عن مسألتي » ، أعطيته أفضل
ما أعطى السائلين .

وقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن
أبي هريرة :

« ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل ، إلا حفت بهم الملائكة ،
وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده »

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
يقول الله : « أنا عند ظن عبدى بي ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن
ذكرنى في نفسه ذكرته في نفسى ، وإن ذكرنى في ملاً ذكرته في ملاً خير
منه ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت
إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيت هرولة »^(١) .

وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
قال الله جل ذكره : « لا يذكرك عبد في نفسه إلا ذكرته في ملاً من
ملائكتى ، ولا يذكرك في ملاً إلا ذكرته في الملاً الأعلى »^(٢) .

(١) رواه البخارى ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، ورواه أحمد بحوه باسناد
صحيح ، وزاد في آخره قال قتادة : « والله أسرع بالمغفرة » .

(٢) رواه الطبرى باسناد حسن .

وعن عبد الله بن بشير رضى الله عنه ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ،
إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأخبرني بشيء أتشبهت به ، قال :
« لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله »^(١) .

وعن مالك بن يحامر أن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، قال لهم :
إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن قلت :
أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : « أن تموت ولسانك رطب من ذكر
الله »^(٢) .

وعن أبي موسى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« مثل الذى يذكر الله ، والذى لا يذكر الله ، مثل الحى والميت »^(٣) .
وعن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، قال :
كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يسير فى طريق مكة ، فمر
على جبل يقال له جمدان ، فقال :
« سيروا هذا جمدان ، سبق المفردون » .

قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟
قال : « الذاكرون الله كثيراً »^(٤) .
وعن أم أنس رضى الله عنها قالت : يا رسول الله أوصنى . قال :
« اهجرى المعاصى ، فإنها أفضل الهجرة ، وحافظى على الفرائض ،

(١) رواه الترمذى واللفظ له وقال : حديث حسن غريب، وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه
والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٢) رواه ابن أبى الدنيا والصبيراقى ، واللفظ له ، والبخارى إلا أنه قال : أخبرنى بأفضل الأعمال ،
وأقربها إلى الله ، وابن حبان فى صحيحه .

(٣) رواه البخارى ومسلم ، إلا أنه قال : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه » .

(٤) رواه مسلم واللفظ له ، والترمذى . ولفظ : يا رسول الله ، وما المفردون .

فإنها أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله ، فإنك لا تأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره «^(١) .

وفي رواية لهما عن أم أنس :

« واذكري الله كثيراً ، فإنه أحب الأعمال إلى الله أن تلقاه بها »^(٢) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم

قال :

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » .

قالوا : وما رياض الجنة ؟

قال : « حلق الذكر » .

وعن أبي هريرة ، رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قال :

من جلس مجلساً كثر فيه لغظه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك :

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ،

إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك - رواه : أبو داود والترمذى .

وأفضل الذكر إنما هو التعبد بتلاوة القرآن ، ولقد كان الصحابة رضوان

الله عليهم يكثر من تلاوته تعبدًا به وكانوا يقسمونه أقساماً :

• لقد كان القرآن لهم حزباً :

وأول^(٣) ما يرجع إليه فى التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه الطبرانى بإسناد جيد .

(٢) قال الطبرانى : أم أنس هذه يعنى الثانية - ليست أم أنس بن مالك .

(٣) عن إحياء علوم الدين .

« من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه » وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل . وقد قالت عائشة رضی الله عنها لما سمعت رجلاً يهذر القرآن هذراً : إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن عمرو رضی الله عنهما أن يحتم القرآن في كل سبع ، وكذلك كان جماعة من الصحابة رضی الله عنهم يحتمون القرآن في كل جمعة : كعثمان وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب رضی الله عنهم . أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب ، فقد حزب الصحابة رضی الله عنهم القرآن أحزاباً ، فروى أن عثمان رضی الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الاثنين بظه إلى طسم موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتزليل إلى الرحمن ، ويحتم ليلة الخميس .

وقيل أحزاب القرآن سبعة . فالحزب الأول ثلاث سور ، والحزب الثاني خمس سور ، والحزب الثالث سبع سور ، والحزب الرابع تسع سور ، والخامس إحدى عشرة سورة ، والسادس ثلاث عشرة سورة ، والسابع المفصل من ق إلى آخره .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضعون أمام أعينهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول « آلم » حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف^(١) .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لا حسد إلا على اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل

(١) رواه الترمذى بسنده عن ابن مسعود رضی الله عنه ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

وَأَناءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ أَتَاهُ اللهُ الْمَالُ فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَنَاءَ النَّهَارِ (١) .
 ولقد وردت الآثار في الحث على سور وآيات معينة ونورد هنا بعض ذلك ليكون كنموذج فقط . وذلك أننا توسعنا في الموضوع في كتابنا « العبادة »
 ونورده أيضاً ليكون فيه ترغيب في حفظ بعض السور القرآنية لمن لم يحفظ شيئاً من القرآن .

الفاتحة

أما الفاتحة فإن لها عن كل اسم من أسمائها نصيباً ، إنها الفاتحة بتوفيق الله لكل شيء مغلق ، وهي الفاتحة لكل باب مقفل .
 إنها : فاتحة الكتاب ، وفاتحة القرآن ، وهي أم الكتاب ، وأم القرآن .
 ومن أسمائها : الكنز ، الواقعة ، الكافية ، الأساس ، سورة الحمد ، سورة الشكر ، سورة الدعاء ، سورة المناجاة ، سورة التفويض .
 ومن أسمائها : الرقية ، الشفاء ، الشافية ، النور ، القرآن العظيم ، السبع المثاني . وكل هذه الأسماء إنما هي شرح لبعض ما تحويه سورة الفاتحة من معانٍ ولبعض آثارها النافعة . ولقد قال العلماء : إنها تحوي مجملاً ما حواه القرآن مفصلاً ومن أجل ذلك سميت أم القرآن ، ولقد روى عن سيدنا عليٍّ أنه قال ما معناه ، لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً في معاني الفاتحة .
 وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب ما تقرأ في الصلاة ؟ : فقرأ أم القرآن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها وإنما سبع من المثاني ، والقرآن العظيم الذى أعطيته » .

(١) رواه البخارى ومسلم ، ومعنى الحمد هنا : الغبطة .

رواه الترمذى ورواه الدارمى من قوله : ما أنزلت ، ولم يذكر أبى بن كعب ، وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة » . رواه مسلم .

وعن جبير بن نفير « رضى الله عنه » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطيهما من كنزته الذى تحت العرش فتعلموهن وعلموهن نساءكم ، فإنها صلاة وقربان ودعاء » . رواه الدارمى -مرسلا .

وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ : « ألم تنزيل » و « تبارك الذى بيده الملك » . رواه أحمد والترمذى ، والدارمى . وقال الترمذى : هذا حديث صحيح .

وعن عليّ ، رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحب هذه السورة ، « سبح اسم ربك الأعلى » رواه أحمد . وعن عروة بن نوفل عن أبيه : أنه قال يا رسول الله : علمنى شيئاً أقوله إذا آويت إلى فراشى . فقال : « اقرأ : قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، فإنها براءة من الشرك » . رواه الترمذى .

وعن عقبة بن عامر ، قال : بينا أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الجحفة والأبواء إذ غشيتنا ريح مظلمة شديدة فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ بـ « أعوذ برب الفلق » و « أعوذ برب الناس » ويقول : يا عقبة تعوذ بهما ، فما تعوذ متعوذ بمثلهما » رواه أبو داود .

ومن الذكر الاستغفار

لقد كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم :
 « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري . اللهم اغفر لي هزلي
 وجدى وخطي وعمدى وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ،
 وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ،
 وأنت على كل شيء قدير » .
 ونعود مرة أخرى إلى التوبة في صورة ثانية من صورها ، أو في زاوية
 من أهم زواياها هي الاستغفار .

يروى علقمة ويروى الأسود عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه
 قال : في كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنب عبد ذنباً ققرأهما واستغفر الله
 عز وجل إلا غفر الله تعالى له :

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
 لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (١) .

وقوله عز وجل :

« وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : في شأن الاستغفار الخالص :

« من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجاً ، ومن

كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

وهذا الحديث الشريف يسير في انسجام مع قوله تعالى :

« اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا » .

وقوله تعالى على لسان نبي الله هود :

« يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ » ^(١) .

والاستغفار مستحب في كل الأوقات ، وإن لم يكن ذنب ، يقول الله

تعالى في إطلاق لا تحديد فيه :

« فَسِيحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

ومع هذا الإطلاق العام فإن الله سبحانه وتعالى ذكر الأسحار باعتبارها من الأوقات التي يستغفر فيها المتقون بقوله سبحانه : « وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » ومن أجل ذلك فإن الذين يستيقظون في ثلث الليل الأخير ، يحرصون على انتهاز فرصة نزول ربنا إلى سماء الدنيا منادياً ، ألا هل من مستغفر فأغفر له ، ألا هل من تائب فأتوب عليه ، ألا هل من سائل فأعطيه .. فيأخذون في الاستغفار .

وسيد الاستغفار هو كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه

عليه :

« اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لى : فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

ويروى الإمام الغزالي عن بعض العلماء أنه قال :

« العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الاستغفار والحمد »

ويروى عن قتادة رحمه الله قوله :
 « القرآن يدلکم على دائکم ودوائکم ، أما داؤکم فالذنوب ، وأما دواؤکم
 فلاستغفار » .

• التهليل :

والتهليل هو الذكر بلا إله إلا الله .
 ومما وصفت به كلمة : لا إله إلا الله ، أنها :
 « كلمة التوحيد ، وهي كلمة الإخلاص ، وهي كلمة التقوى ، وهي
 الكلمة الطيبة ، وهي دعوة الحق ، وهي العروة الوثقى ، وهي ثمن الجنة » (١) .
 وقد روى الترمذى بسنده عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه
 قال :

« خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
 له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » .

وقد أخرج الإمامان : البخارى ومسلم ، رضى الله عنهما من حديث
 أبى هريرة ، نضر الله وجهه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال :
 « من قال لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ،
 وهو على كل شيء قدير . مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت
 له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه
 ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر
 من ذلك » .

والمعنى فى الحديث الشريف أن من قال ذلك فى إخلاص مخلص
وفى اتجاه إلى الله سبحانه لا يشوبه شرك .

• التسيح والتحميد والتكبير والحوالة :

يقول الله تعالى :

« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ، وَمِنَ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَأَذْبَارَ السُّجُودِ » (١) .

ويقول تعالى :

« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » (٢) .

ويقول جل شأنه :

« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » (٣)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى

الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » (٤) .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت : يا رسول الله أخبرنى بأحب

الكلام إلى الله ، فقال :

« إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده » (٥) .

(١) ق - آيتا : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) الطور - آيتا : ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) النصر - آيتا : ٣ ، ٤ .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

(٥) رواه مسلم ، والنسائى ، والترمذى .

وعن جويرية رضى الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة ، فقال : ما زلت على الحال التي فارقتك عليها ؟ قلت : نعم .

قال النبي صلى الله عليه وسلم :

لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ

اليوم لوزنتهن :

« سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد

كلماته »^(١) .

وإن من الصيغ المباركة الجامعة التي تؤخذ من الآيات القرآنية والأحاديث

النبوية والتي جربها الكثير من الصالحين فوجدوا لها نوراً وبركة ، ما يلي :

« سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، أستغفر الله » .

وسواء أكننا بصدد الاستغفار أم غيره من التهليل والتسبيح إلخ. فالمطلوب

تكرارها حتى يتفعل بها الإنسان ويتجاوب معها .

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم :

« استكثروا من الباقيات الصالحات » قيل : وما هن يا رسول الله ؟

قال :

« التكبير ، والتهليل والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا

بالله »^(٢) .

إذا حدثتكم بحديث ، أتيناكم بتصديق ذلك في كتاب الله : إن العبد

(١) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجه . والترمذى .

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى والنسائي .

إذا قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وتبارك الله ، قبض عليهن ملك فضمهن تحت جناحه ، وصعد بهن على جمع من الملائكة ؟ ألا استغفروا لقائلهن ، حتى يحيي بهن وجه الرحمن . ثم تلا عبد الله :

« إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » ^(١) .

وعن أبي موسى رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له :

« قل لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها كثر من كنوز الجنة » ^(٢) .

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشي خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لى :

يا أبا ذر ، ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة ؟ قلت : بلى . قال :

« لا حول ولا قوة إلا بالله » ^(٣) .

ومن الذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .
يقول الله تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

ولقد روى الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من صلى على صلاة ، صلى الله عليه بها عشراً » .

(١) رواه الحاكم - وقال صحيح الإسناد .

(٢) رواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٣) رواه ابن ماجه ، وابن أبى الدنيا ، وابن حبان فى صحيحه .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه - فيما رواه الترمذى وحسنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة » .

وروى الأئمة : أحمد والترمذى والحاكم بسندهم عن أبي الدرداء رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة ، فإنه مشهود تشهده الملائكة ، وإن أحداً لم يصلني على إلا عرضت على صلواته حتى يفرغ منها » .

قال قلت : وبعد الموت ؟ ، قال :

إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن أفضل صيغ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : الصيغة التي يقرؤها الإنسان في التشهد في الصلاة . وصيغ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة ، ويسعدنى هنا أن أذكر الصيغة التي أضاعت حروفها وتلألأت والتي ذكرت ظروفها في كتاب « المدرسة الشاذلية » وهي لتفريج الكرب :

« اللهم صل صلاة جلال ، وسلم سلام جمال على حضرة حبيبك سيدنا محمد ، واغشه اللهم بنورك كما غشيتة سحابة التجليات ، فنظر إلى وجهك الكريم ، وبحقيقة الحقائق كلم مولاه العظيم الذى أعاده من كل سوء .

اللهم فرج كربى كما وعدت :

« آمن يوجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » .

وعلى آله وصحبه آمين » .

الفصل السابع

اِفْتَلِ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

في الدعاء

إن القرآن الكريم يذكر لنا مجموعة من الأدعية تتناسب مع ظروف الحياة المختلفة ، فهو مثلا يحدثنا عن صورة المؤمنين في الحروب سواء فيما يتعلق بالفعل أو بالقول ويبين لنا النتائج التي رتبها سبحانه على موقفهم ، فيقول تعالى :

«وَكَايْنٌ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمَصَابِرِينَ .
« وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَنُبِتْ أقدامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ تَوَابَ الآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (١) .

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى ما يقال من دعاء عند نزغ الشيطان ، فيقول سبحانه :

« وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

ويقول في ذلك سبحانه :

« وَقُلْ رَبِّ اعْوِذْ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ » .

(١) آل عمران - آيتا ١٤٦ - ١٤٨ .

ولقد أخذ كثير من الناس يتدبرون القرآن في مواطن الدعاء ، فاستشفوا أسراراً من أسرار الدعاء ، صرحوا ببعضها وتركوا لغيرهم أن يتدبروا ويكتشف . ومن هؤلاء الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه ، الذى يقول متدبراً للقرآن ومستنتجاً منه : عجبت لأربع كيف يغفلون عن أربع :

١ - عجبت لمن ابتلى بالخوف كيف يغفل عن :
« حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ » .

وأصل هذه القصة معروف :

يروى ابن هشام بخصوص موقف المسلمين في أحد بعد المعركة ثانياً يوم فيها قال :

مر بأبي سفيان - وكان حينئذ قائد المشركين - ركب من عبد القيس ، فقال لهم أبو سفيان : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة . قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكل فى مقابل ذلك زيباً بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم .

قال : إذا وافيتم محمداً فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه ، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . ومر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه ، فكان رد الفعل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ما صوره الله تعالى بقوله :

« الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ، فَخَشَوْهُمْ فَرَّادَهُمْ إِيمَانًا ، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ

لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ .

ويقول الإمام جعفر :

٢ - وعجبت لمن ابتلى بمكر الناس به كيف يغفل عن :

« وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا » .

وهذه القصة هي قصة مؤمن آل فرعون .

لقد كان في آل فرعون رجل مؤمن يكم إيمانه ، فلما قال فرعون :

« ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى » قال المؤمن :

« أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ، يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا » (١) .

وأخذ يدعو قومه إلى الحق ، وأخذ يجادل ويناقش محاولا جرهم إلى

سواء السبيل ، ثم انتهى به الأمر معهم أن قال :

« فَسْتَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ

بِالْعِبَادِ . فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ » (٢) .

لقد حفظه الله حينما فوض الأمر إليه حالا ومقالا .

٣ - وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف يغفل عن :

« رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

(١) غافر آيتا : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) غافر آيتا : ٤٤ ، ٤٥ .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ . »

والحادثة يرويها القرآن الكريم في سورة الأنبياء قائلا :

« وَيُوبَى إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ . »

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ

رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ . »

٤ - وعجبت لمن ابتلى بالغم ، كيف يغفل عن :

« لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . »

والله سبحانه وتعالى يقول :

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَبَيَّنَّا لَهُ مِنَ الْعَمِّ . »

والقصة كما يذكرها القرآن ، قال :

« وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ، فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فِي

الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ،

وَبَيَّنَّا لَهُ مِنَ الْعَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ .^(١) »

وعلى غرار النسق الذي ذكره الإمام الصادق ، يمكن أن يقال :

عجبت لمن أثم كيف يغفل عن :

« رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . »

والقصة كما يرويها القرآن عن آدم وحواء حينما أكلا من الشجرة :

« وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ، وَأَقْبَلْ لَكُمَا إِنْ

الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا . »

قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا . وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(٢) .

(٢) الأعراف آيات : ٢٢ ، ٢٣ .

(١) الأنبياء - آيات : ٨٧ ، ٨٨ .

وعجبت لمن يخشى العذاب في الدنيا ، كيف يغفل عن الاستغفار ،
والله سبحانه وتعالى يقول :

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »^(١)
ولقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن ندعوه وأن نلجأ إليه ، وأن نتضرع له في
الرخاء وفي الشدة ، وإن الإنسان وهو في حالة النقص الدائم محتاج إلى الله
سبحانه وتعالى ، في كل لحظة ، فهو في حاجة إذن إلى الدعاء في كل فترات
حياته . يقول الله سبحانه وتعالى :

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَأَنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ،
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ، وَلْيُؤْمِنُوا بِلِعَلِّهِمْ يَرْشُدُونَ »^(٢)
ويقول سبحانه :

« أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ
الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ »

ولقد التجأ إلى الله بالدعاء الأنبياء والمرسلون : لقد دعوه في كل وقت
لاجئين إليه ، مستغيثين به في جميع أمورهم . ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه :
« وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ، رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا
يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ »^(٣)

واستغاث به المسلمون ، متضرعين خاشعين داعين ، فاستجاب لهم :
« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ
مُرْدِفِينَ »^(٤)

(٢) البقرة - آية : ١٨٦ .

(١) الأنفال - آية : ٣٣ .

(٤) الأنفال - آية : ٩ .

(٣) الأنبياء - آيات : ٨٩ ، ٩٠ .

واتجه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين عودته من الطائف بهذا
لدعاء الرائع :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ،
يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ،
إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك عليّ غضب
فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي
أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ،
أويحل عليّ سخطك ، لك العتبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

والواقع أن في الدعاء تتمثل العبودية لله سبحانه وتعالى ، واضحة
جليّة ، أي أنه تتمثل فيه العبادة ، في صورة من أصدق صورها ، أما
العزوف عن الدعاء ، فإنه عادة ينشأ عن نوع من عدم المبالاة بالدين ،
أساسه الكبرياء التي هي أساس كثير من المعاصي والبدع والانحرافات ،
والتي كانت في أساس المعصية الشنيعة التي تورط فيها إبليس ، حينما أمره
الله فيمن أمر ، بالسجود لآدم . لقد أبي واستكبر وقال :

« أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

ولقد أوقعه كبرياؤه على الخطأ في أيسر الأمور ، لقد جعل مناط
الخيرية المادة : مادة الجسم ، ولم يهتد عقله في ساعة كبريائه إلى أن
المادة مجرد وعاء ، وأن الوعاء لا يكون مقياس التفضيل ، وأن ما في الوعاء
هو الذي يكون نفساً سامياً أو خسيساً لا قيمة له .

ومنع كبرياؤه أيضاً : من أن يرجع إلى الله بالتوبة الخالصة النصوح ،
وهي من مظاهر العبودية ، ولذلك طرد من رحمة الله . أما آدم : فإنه بمجرد
أن أكل من الشجرة ، شعر بالحياء من الله ، فلجأ إليه مستغفراً تائباً

منياً ، وتمثل فيه مظهر العبودية جلياً واضحاً بالدعاء :
 « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

• شهر رمضان والدعاء :

وإنه مما ينبغي في شهر رمضان المبارك ، شهر القرآن ، أن يكثر الإنسان من الدعاء ، وذلك أنه من الأوقات التي تفتح فيها أبواب السماء ، وقد وردت الأحاديث في قبول دعاء الصائم .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ،
 ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول
 الرب : وعزتي وجلالي ، لأنصرنك ولو بعد حين » . رواه أحمد في حديثه ،
 والترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحهما ،
 إلا أنهم قالوا : « حتى يفطر » .

ورواه البيهقي مختصراً :

« ثلاثة حق على الله أن لا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمظلوم
 حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع » .

وعن عبد الله - يعنى ابن أبى مليكة - عن عبد الله - يعنى ابن عمرو
 ابن العاص - رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد » . قال : وسمعت عبد الله يقول
 عند فطره :

اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفرلى .
 زاد في رواية : « ذنوبى » ، رواه البيهقي .

وعن سلمان رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
في آخريوم من شعبان قال :

« يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، شهر جعل الله صيامه فريضة ، وقيام ليله تطوعاً ، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه ، كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزداد في رزق المؤمن فيه ، من فطر صائماً كان مغفرة لذنوبه ، وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء . قالوا : يا رسول الله ، ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يعطى الله هذا الثواب من فطر صائماً على تمر ، أو على شربة ماء ، أو مذقة لبن ، وهو شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار ، من خفف عن مملوكه فيه ، غفر الله له ، واعتقه من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خصال :

خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لا غناء لكم عنهما :

فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم : فشهادة أن لا إله إلا الله ، وتستغفرونه .

وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما : فتسألون الله الجنة ، وتعوذون به من النار .

ومن سقى صائماً ، سقاه الله من حوضي شربة لا يظماً حتى يدخل الجنة .

رواه ابن خزيمة في صحيحه ، ثم قال : صح الخبر . ورواه من طريقه
البيهقي .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال يوماً وحضر رمضان :

« أتاكم رمضان شهر بركة يفشاكم الله فيه ، فينزل الرحمة ، ويحط
الخطايا ، ويستجيب فيه الدعاء ، ينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه ،
ويباهى بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيراً فإن الشق من حرم فيه
رحمة الله عز وجل . »

رواه الطبراني ورواه ثقات .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم :

ثلاثة لا ترد دعوتهم : « الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ودعوة
المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب :
وعزى لأنصرك ولوبعد حين . »

رواه أحمد والترمذي وحسنه ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما ،
والبزار ولفظه :

« ثلاثة حق على الله أن لا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمظلوم
حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع . »

وإن من الملاحظات الدقيقة التي يلاحظها ذوو البصائر المشرفة ،
أن الآيات التي تتحدث عن أحكام الصوم وحكمته ، وعن شهر رمضان ،
جمعت في مكان واحد من سورة البقرة ، ويفجأ الإنسان أنه يتخللها قوله
نعالي :

« وإذا سألك عبادى عنى فأبى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان
 فيستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون » .

وهذه المفاجأة : لا تمر مهملة ، كلا ، فإن كل وضع فى القرآن
 له حكمته ، ومن الحكمة التى تبدولنا فى تحلل آية الدعاء ، فى وسط
 الآيات عن رمضان والصيام ، أن الدعاء فى أثناء ذلك جدير بالاستجابة ،
 لما يحيط به من جوروحانى هو جو العبودية والتقوى . الناتج عن الصيام ،
 وعن الصلاح الذى يتسم به من صام إيماناً واحتساباً ، والذى تصف الأحاديث
 النبوية الشريفة بعض مظاهره وبعض ثماره :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 قال الله عزوجل :

« كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به ،
 والصيام جنة . فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن
 سابه أحد - أوقاته - فليقل : إنى صائم ، إنى صائم .
 والذى نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب من ريح المسك ،
 للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لى ربه فرح بصومه » (١) .
 وفى رواية للبخارى :

يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ، الصيام لى وأنا أجزى به ،
 والحسنة بعشر أمثالها » .

وفى رواية لمسلم :

كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة
 ضعف ، قال الله تعالى :

(١) رواه البخارى - واللفظ له - ومسلم .

« إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي ،
للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلاف
فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

« من الدعاء فى القرآن :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ .
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تَدْخُبُوا بَقْرَةَ ، قَالُوا
اتَّخِذْنَا هُزُؤًا . قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » ^(١)

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ
أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا
وَتَبَّ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » ^(٢) .

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ،
وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » ^(٣) .

« فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ
مِنْهُ ، فَلَيْسَ مِنِّي ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ، إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ،
فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، قَالُوا :

(١) البقرة - آية : ٦٧ .

(٢) البقرة - آية : ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٣) البقرة - آية : ٢٠١ .

لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مَلَاقُوا اللَّهَ ،
 كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .
 وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ، وَثَبِّتْ
 أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ^(١) .

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
 وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
 وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ
 رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ
 عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَأَعْفُ عَنَّا ،
 وَاعْفِرْ لَنَا ، وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا ، فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ^(٢) .
 « رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ،
 إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » ^(٣) .

« الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » ^(٤) .
 « هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ،
 إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » ^(٥) .
 « رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » ^(٦) .

(١) البقرة - آيتا : ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) البقرة - آيتا : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٣) آل عمران - آية : ٨ .

(٤) آل عمران - آية : ١٦ .

(٥) آل عمران - آية : ٣٨ .

(٦) آل عمران - آية : ٥٣ .

« وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » (١).

« رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » (٢).

« رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ، وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ » (٣).

« الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » (٤).

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » (٥).

« قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ، وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » (٦).

« وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ، قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (٧).

« وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا ، رَبَّنَا أفرغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ » (٨).

(١) آل عمران - آية : ١٤٧ .

(٢) آل عمران - آية : ١٩١ .

(٣) آل عمران - آية : ١٩٤ .

(٤) النساء - آية : ٧٥ .

(٥) المائدة - آية : ٨٣ .

(٦) المائدة - آية : ١١٤ .

(٧) الأعراف - آية ٤٧ .

(٨) الأعراف - آية : ١٢٦ .

« قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » (١)
 « فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَجِّنَا
 بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » (٢).

« رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ، رَبَّنَا
 اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » (٣)
 « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا : رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ
 لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا » (٤).

« قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ
 لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي » (٥).

« فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى
 إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ : رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » (٦).

« وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ
 أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ
 مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ . وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ، رَبِّ لَا تَذَرْنِي
 فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَاصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ،
 إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » (٧).

(١) الأعراف - آية : ١٥١ .

(٢) يونس - آيتا : ٨٥ ، ٨٦ .

(٣) إبراهيم آيتا : ٤٠ ، ٤١ .

(٤) الكهف آية : ١٠ .

(٥) طه - الآيات : ٢٥ - ٢٨ .

(٦) طه آية : ١١٤ .

(٧) الأنبياء - الآيات : ٨٧ - ٩٠ .

« قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ . رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »^(١) .
 « وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ »^(٢) .
 « إِنَّهُ كَانَ قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ ، رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ
 خَيْرُ الرَّاحِمِينَ »^(٣) .

« وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ »^(٤) .
 « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا .
 إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا »^(٥) .

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا
 لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا »^(٦) .

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ . وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ
 فِي الْآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . وَاعْفُرْ لِأَيِّبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ .
 وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »^(٧) .
 « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ، وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
 أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي
 عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ »^(٨) .

(١) المؤمنون - آيتا : ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) المؤمنون - آيتا : ٩٧ ، ٩٨ .

(٣) المؤمنون - آية : ١٠٩ .

(٤) المؤمنون - آية : ١١٨ .

(٥) الفرقان - آيتا : ٦٥ ، ٦٦ .

(٦) الفرقان - آية : ٧٤ .

(٧) الشعراء - الآيات ٨٣ - ٨٩ .

(٨) النمل - آية : ١٩ .

« قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ، فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ » (١).

« فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (٢) .
 « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ ، وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٣) .
 « فَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » (٤) .

« رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » (٥) .

« قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » (٦) .

« لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ » (٧) .

« وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » (٨) .

(١) الفصص - آية : ١٦ .

(٢) الفصص - آية : ٢١ .

(٣) غافر - آيات : ٧ ، ٨ .

(٤) غافر - آية : ٤٤ .

(٥) اللدخان - آية : ١٢ .

(٦) الأحقاف - آية : ١٥ .

(٧) النجم - آية : ٥٨ .

(٨) الحنجر - آية : ١٠ .

رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .
 رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿١﴾ .

«يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ
 أَيْدِيهِمْ ، وَبِأَيْمَانِهِمْ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ» ﴿٢﴾ .

«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ .
 وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» ﴿٣﴾ .

«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ
 الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْخِيْنَةِ وَالنَّاسِ» ﴿٤﴾ .

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .
 مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ
 الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» آمين .

* * *

والآن نتقل إلى من كان خلقه القرآن ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً على الدعاء وعالجه من نواح
 متعددة وكان في كل ذلك متمشياً تمشياً كاملاً مع القرآن .

(١) المتتحة - آية : ٤ ، ٥ .

(٢) التحريم - آيتا : ٨ .

(٣) سورة الفلق .

(٤) سورة الناس .

إن القرآن الكريم حث على الدعاء ، وذكر أنماطاً من الدعوات ومواقف من اللجوء إلى الله في ذلك . ولقد نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا النهج : لقد حث صلوات الله وسلامه عليه ، على الدعاء واستفاض صلى الله عليه وسلم فيه استفاضة تتناسب مع العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى ، التي حققها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وحققتها بسلوكة وحققتها بمشاعره وأحاسيسه التي أعلنت في وضوح ، العبودية في أتم صورها .

وكما تتسم الدعوات في القرآن بالسهولة الممتعة في الأسلوب فإن دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم تتسم بالجزالة والوضوح .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعو بما يتناسب مع الوضع الذي هو فيه ، زماناً كان ، أو مكاناً ، أو حالة نفسية ، أو اجتماعية . بل كان له في كثير من الحالات أدعية عدة لكل حالة بذاتها ، تتفاوت طولاً وقصراً ، وتختلف معنى ولفظاً .

ونحن الآن بعد أن أوجزنا الحديث عن موقف القرآن من الدعاء . نبدأ الآن بالحديث عن موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدعاء ، وهذا الذي نشرع فيه الآن إنما هو توضيح للموقف القرآني نفسه ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

وإننا إذن لم نخرج عن الحديث في القرآن حينما نتحدث عن موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدعاء ، وحينما نستفيض في ذكر صيغ من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• فضل الدعاء :

عن أبي هريرة رضى الله عنه - فيما أخرجه الإمام أحمد والترمذى -
عن النبي صلى الله عليه وسلم :
« ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض » (١) .
وعن النعمان بن بشير ، رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال :

« الدعاء هو العبادة » ، ثم قرأ :
« وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » (٢) .

وروى عن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم
قال :

« الدعاء مخ العبادة » رواه الترمذى .
وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال :

« ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا أتاه الله تعالى إياها ، أو
صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » .

فقال رجل من القوم :

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ورواه أبو يعلى من حديث على .

(٢) رواه أبو داود ، والترمذى . وقال حديث صحيح .

« إذن نكثر » قال : « الله أكثر » رواه الترمذى ، والحاكم .
وعن أبي هريرة ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل فى مسألة إلا أعطاه إياه :
إما أن يعجلها له ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة »^(١) .

وعن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنهما عن النبى ، صلى الله عليه وسلم قال :

« يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه ، فيقول :
عبدى إني أمرتك أن تدعونى ، ووعدتك أن أستجيب لك ، فهل
كنت تدعونى ؟

فيقول : نعم يا رب .

فيقول : أما إنك لم تدعنى بدعوة إلا استجبت لك ، أليس دعوتى
يوم كذا وكذا ، لغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟
فيقول : نعم يا رب .

فيقول : إني عجلتها لك فى الدنيا .

ودعوتى يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجاً ؟
قال : نعم يا رب .

فيقول : إني ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا .

ودعوتى فى حاجة أن أقضيها لك فى يوم كذا وكذا فقضيتها ؟
فيقول : نعم يا رب .

فيقول : إني عجلتها لك فى الدنيا .

ودعوتى يوم كذا وكذا فى حاجة أقضيتها لك فلم تر قضاءها ؟
 فيقول : نعم يا رب .

فيقول : إني ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا » .

قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له : إما أن يكون عجل له فى الدنيا ، وإما أن يكون الأجر له فى الآخرة ، قال : فيقول المؤمن فى ذلك المقام : يا ليته لم يكن عجل له شيء من دعائه » ^(١) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

قال الله تعالى :

« يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لآتيتك بقرابها مغفرة » ^(٢) .

وعن أبي هريرة ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الله عز وجل يقول :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا دعاني » ^(٣) .

(١) رواه الحاكم .

(٢) رواه أحمد والحاكم .

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

فضله :

وعن أبي صالح - فيما أخرجه ابن ماجه - قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من لم يسأل الله يغضب عليه » .

وعن عبد الله - فيما أخرجه الترمذى - قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم :

« سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار

الفرج » .

وعن أبي ذر^(١) رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى

عن ربه عز وجل أنه قال :

« يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا

تظالموا .

يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم .

يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم .

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم .

يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً

فاستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب

(١) حينما كان أبو إدريس الخولانى يروى هذا الحديث بالذات فإنه كان يتخذ هيئة مخصوصة

إجلالا للحديث . لقد كان يجثو على ركبته أولاً ثم يبدأ الحديث .

رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .
يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب
رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً .
يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد
فسألوني فأعطيت كل إنسان منكم مسأله ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما
ينقص المحيط إذا أدخل البحر .
يا عبادى إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم بإها ، فمن وجد
خيراً فليحمد الله عز وجل ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ^(١) .

« الدعاء والقضاء :

وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم
الرزق بالذنب يذنبه » ^(٢) .

وعن سلمان الفارسي رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال :

« لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد العمر إلا البر » ^(٣) .
وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« لا يغني حذر عن قدر ، والدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل ، وإن البلاء
لينزل فيلقاه الدعاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة » ^(٤) .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم .

(٣) رواه الترمذى .

(٤) رواه البزار ، والطبراني ، والحاكم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل
 الله شيئاً » يعنى أحب إليه من أن يسأل العافية ، وقال : قال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم :

« إن الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء .^(١)
 ويقول الإمام الغزالي :

فإن قلت : ما فائدة الدعاء والقضاء لا مردّ له ؟

فاعلم أن القضاء ردّ البلاء بالدعاء واستجلاب الرحمة ، فالدعاء سبب
 لردّ البلاء كما أن الترس سبب لردّ السهم ، والماء سبب لخروج النبات من
 الأرض ، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء
 يتعالجان ، وليس ، من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى ألا يحمل السلا-
 وقد قال تعالى :

« خذوا حذركم » .

وألا نسقى الأرض بعد بثّ البذور ، فيقال إن سبق القضاء بالنبات
 نبت البذر ، وإن لم يسبق لم ينبت ، بل ربط الأسباب بالمسببات هو
 القضاء الأول .

وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدرّج والتقدير
 هو القدر ، فالذى قدر الخير قدره لسبب ، والذى قدر الشر قدره لدفعه
 سبباً ، فلا تناقض في هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته « اهـ .

(١) رواه الترمذى . والحاكم .

، ثمرة الدعاء :

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لا تعجزوا في الدعاء ، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد «^(١)» .
وعن أبي سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن النبي ، صلى الله عليه
وسلم قال :

« ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله
بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ،
إما أن يصرف عنه من السوء مثلها » .

قالوا : إذن نكثر ؟

قال : الله أكثر .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم :

« من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها
الله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل »^(٢) .

، استجابة الدعاء :

عن سليمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن الله حى كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً
تخائبتين »^(٣) .

(١) رواه ابن حبان والحاكم .

(٢) رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى ، والحاكم .

(٣) رواه أبو داود ، والترمذى ، وحسنه .

(٤) رواه أبو داود ، والترمذى ، وحسنه .

فاذا أردت الإستجابة فابدأ :

١ - بالتوبة الخالصة النصوح .

٢ - وتحريم الحلال .

فعن ابن عباس ، فيما أخرجه الحافظ ابن مردويه ، تليت هذه الآية عند النبي ، صلى الله عليه وسلم :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا » فقام سعد بن أبي وقاص

فقال :

يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال :

« يا سعد ، أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس

محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين

يوماً ، وأتما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به . »

• الدعاء في الرخاء :

وعن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم

قال :

« من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في

الرخاء » (١)

• دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب :

عن أبي الدرداء رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك ولك بمثل » (٢)

(١) رواه الترمذى والحاكم .

(٢) رواه مسلم .

وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقول :
 « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ،
 كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل آمين ولك بمثل »^(١) .
 وعن صفوان بن عبد الله فيما رواه الإمام مسلم - قال :
 قدمت الشام فأتيت أبا الدرداء في منزله ، فلم أجده ، ووجدت
 أم الدرداء .

فقلت أتريد الحج العام ؟

فقلت : نعم .

فقلت : ادع لنا بخير ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :
 دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب^(٢) مستجابة ، عند رأسه ملك موكل
 كلما دعا لأخيه بخير ، قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل .
 قال : فخرجت إلى السوق فلقيت أبا الدرداء ، فقال لي مثل ذلك يرويه -
 عن النبي صلى الله عليه وسلم .

• أوقات الدعاء وأما كنهه :

والدعاء يصح في كل وقت ، بيد أن هناك أوقاتاً وأماكن أرجى في
 قبول الدعاء من غيرها ، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أوقاتاً
 للدعاء ، منها ثلث الليل الأخير .

يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول :

(١) رواه مسلم .

(٢) أي في حالة غيبة أخيه .

من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ »
رواه البخارى .

ولقد سئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن أى الدعاء أسمع ؟
فقال :

« جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة » رواه الترمذى وحسنه .
وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال :
« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثر وا من الدعاء » .
ونقل البيهقى فى السنن الكبرى عن الإمام الشافعى ، أنه قال : بلغنا
أنه كان يقال :

« إن الدعاء ، يستجاب فى خمس ليال ، فى ليلة الجمعة ، وليلة
الأضحى ، وليلة الفطر ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان » .
وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ساعتان لا ترد على داع ، دعوته : حين تقام الصلاة ، وفى الصف
فى سبيل الله » رواه ابن حبان فى صحيحه .
الأماكن الطاهرة المباركة ، وأشرفها الحرم المكى والحرم المدنى ،
والمسجد الأقصى .

وقال صلى الله عليه وسلم :
« الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد »^(١) .
وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً :
« الصائم لا ترد دعوته »^(٢) .

(١) رواه الحاكم وصححه . (٢) الترمذى وحسنه .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد ، فأكثرُوا فيه من الدعاء »^(١) .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «^(٢) .

« إني نهيْتُ أن أقرأ القرآن راکعاً وساجداً ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فَمَمَّنْ أَنْ يَسْتَجَابَ لَكُمْ »^(٣) .

* من جوامع الدعاء :

عن أبي أمامة رضى الله عنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً ، قلنا يا رسول الله ، دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً ؟ فقال ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله تقول :

« اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنت المستعان ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »^(٤) .

وعنه رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) انظر إحياء علوم الدين .

(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر « (١) .

وروى الحاكم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
 أتحبون أيها الناس أن تجتهدوا في الدعاء ؟
 قالوا : نعم يا رسول الله .
 قال : قولوا اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

اِفْتَلِ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

أسس العقيدة الإسلامية

• إثبات الرسالة :

إن أشق مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل . إنما هي إقناع الناس برسالته ، وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع ، واختلفت أساليبه ، وقد بدأ الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كأسلافه ، بتقرير أنه رسول ، وأنه متصل بالسماء : وأن الوحي ينزل عليه تبعاً .

وقد أرسله الله تعالى ، لحكمة سامية قد ردها القرآن في غير ما موضع : هي تزكية النفوس وتطهيرها ، وتزكيتها وتطهيرها خلقياً ، واجتماعياً ، مؤسماً ذلك على تطهيرها وتزكيتها من ناحية العقيدة .

« لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »^(١) .

« رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »^(٢) .

(١) سورة آل عمران - آية : ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة - آية : ١٢٩ .

ومن أجل ذلك كان إرساله رحمة للعالمين :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

ولكن العرب سخروا من دعوته ، وكان لا بد من أن يفحهم بآية من آيات الله ، فلم تخرج هذه الآية عن أن تكون القرآن .

لقد تحداهم به في عنف ، وتحداهم - متدرجاً بهم - من أن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

إلى أن يأتوا بعشر سور مثله ، ثم انتهى بهم أخيراً إلى أن يأتوا بسورة من مثله . قال تعالى :

« قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » الإسراء (٨٨) .

« أَمْ يَقُولُونَ : افترأه ؟ قُلْ : فَاتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » هود (٦٣) .

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ، فَاتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » البقرة (٢٤، ٢٣) (١) .

(١) في هذه الآيات كرر القرآن لفظ : (مثل) والمثلية لا تختص بجانب دون جانب ، وإنما تنم جميع المناحي . والواقع أن النقاش في أن القرآن : معجز بأسلوبه أو بمعانيه ، أو بقصصه ، أو بأخباره عن المغيبات أو بغير ذلك من وجوه ، إنما هو : نقاش لا يتشعب مع الفكرة القرآنية ، التي هي في التماثل من جميع النواحي .

قال صاحب البحر المحیط : والمثلية في حسن النظم ، وبديع الوصف ، وغزاة الأسلوب ، والإخبار بالغيب ، مما كان وما يكون . وما احتوى عليه . من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والقصص . والحكم والمواعظ والأمثال . والصدق والأمن من التحريف والتبديل (ج ١ ص ١٠٤ - ١٠٥) ، ومنشأ الاختلاف ، في تحديد وجوه الإعجاز في القرآن : راجع إلى اختلاف درجة الاستعدادات الفطرية ، والابجهايات الفكرية ، لإدراكها ومعرفتها . فمثلاً ، من وجد القرآن مصداقاً لما بين يديه -

ولم الشك في أمر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، مع أنه لو أخبرهم :
 أن خيلاً وراء الوادى ستغير عليهم لصدوقه لأنهم لم يعهدوا فيه كذباً ؟ ..
 على أنه قد لبث فيهم من قبل أربعين عاماً ، فلم يحدث بشبهة ولا برسالة :
 ذلك أن هذا الأمر إنما يرجع إلى مشيئة الله فحسب .
 « قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا
 مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » يونس (١٦) .

ويطلب إليهم القرآن ، أن يتفكروا في أمر صاحبهم هذا الذى نشأ
 بينهم ، وترعرع على مرأى ومسمع منهم ، بل كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم :
 بالصدق ، والأمانة ، ورجاحة العقل . قال تعالى :
 « قُلْ : إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَنِئِي وَفِرَادَى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ،
 مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (١) » .
 سبأ (١٦) .

= من التوراة ، والإنجيل ، وأخبار السابقين ، والغيبات التى لا تحيط بها البشرية علماء ، حصر وجوه
 الإعجاز فيها أدرك .

ومن نظر إلى القرآن من ناحية اللفظ ، وحسن السبك ، وجزالة الأسلوب وما له من روعة تملك
 على السامع شعوره ووجدانه ، حصر الإعجاز في ذلك . ومن أجال فكره فيها حواه القرآن . من
 الأسرار الكونية التى تكشف عنها العلوم والبحوث أياً كانت . فهو مصدق لما في الطبيعة ، والقطر .
 « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

(١) والمعنى على ما ورد في الزمخشري « ملخصاً » .

متفكرين اثنين اثنين ، وواحدًا واحدًا ، ثم تفكروا » في أمر محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وما
 جاء به .

أما الاثنان . فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين .
 لا يميل بهما اتباع هوى ، ولا يبنض لهما عرق عصبية ، حتى لا يهجم بهما الفكر الصالح والنظر
 الصحيح على جادة الحق وسنته .

إنما أعظم بوحدة ، إن فعلتموها أصبتم الحق وتحصنتم ، وهى أن تقوموا لوجه الله خالصاً وكذلك =

ولم الشك في أمره مع أنه قد تجرد من كل مطمح دنيوى :
 « قُلْ : مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَهُوَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » .

ولم التشكك في أمره وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب ؟ ومن كانت حاله هذه
 لا يمكنه أن يستمد ما يقول من كتاب .

قال تعالى :

« وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ ، إِذَنْ لَا رَتَابَ
 الْمُؤْتَلُونَ » العنكبوت (٤٨).

هذه الظروف ، وهذه الملابس ، فضلا عن القرآن ، ترشد إلى أن
 محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، كان صادقاً في دعواه .

« معارضة العرب :

بيد أن العرب تغالوا في المعارضة ، حتى لقد وصلوا أحياناً ، إلى حد
 السخف ، ولكن القرآن كان لهم بالمرصاد ، وكان دائماً يفحمهم في قوة .
 لقد قالوا : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ، وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ؟ »
 فرد الله عليهم بما يقطع حججهم :

= الفرد : يفكر في نفسه بعدل ونصفة ، من غير أن يكايرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما
 استقر عنده .

من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم .

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفردى : أن الاحتجاج مما يشوش الخواطر ويمنع من الرؤية . ومع
 ذلك بقل الإنصاف . ويكثر الاعتساف . وقد علمتم أن محمداً صلى الله عليه وسلم : ما به من جنة ،
 بل علمتموه : أرجح قريش عقلاً ، وأصلبهم رأياً . وأصدقهم قولاً ، وأزهرهم نفساً . فكان مظنة لأن
 نظروا به الخير . وإذا علمتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية .

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبَاكُلُونَ الطَّعَامَ ، وَيَمَشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » .

وقال : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » .
« وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ؟ فَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ فِي أَسْلُوبٍ لَادِعٍ : « أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » .

ولم يجد اليهود ولا النصارى مفرًا من الاعتراف ، بأن الرسل السابقين كانوا حقًا كذلك .

وقال العرب :

« لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ؟ » .

فإذا بالقرآن يعلل ذلك تعليلا في غاية القوة والوضوح :

« كَذَلِكَ ، لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » (١) .

ورأوا ، أن يكون الرسول ملكاً ، فإذا بالقرآن يجيبهم في منطق صارم :

(١) وهذا أيضاً من اعتراضاتهم ، واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق ، ويجابهم عن اتباعه ، قالوا : هلا نزل عليه دفعة واحدة ، في وقت واحد ، كما نزلت الكتب الثلاثة ؟ وما له أنزل على التفريق ؟
والقائلون قريش ، وقيل اليهود .

وهذا فضول من القول ، وهماة بما لا طائل تحته : لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به : كان يختلف بروله جملة واحدة أو مفرقا ، وقوله تعالى : « كَذَلِكَ لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ » . « جواب هم » ، أي كذلك أنزل مفرقا .

والحكمة فيه : أن نقري ، بتفريقه ، فؤادك حتى تعيه وتحفظه ، لأن المتلقن : إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء وجزءاً عقب جزء . ولو أتى عليه جملة واحدة لبع له وتعبا يحفظه .

والرسول ، صلى الله عليه وسلم : فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام حيث كان أمياً : لا يقرأ ولا يكتب ، وهم كانوا قارئين كاتبين ، فلم يكن له بد من من التلقن والحفظ ، فأنزل عليه منجماً في عشرين سنة ، وقيل في ثلاث وعشرين . وأيضاً فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات

السائلين . :
« عن الزمخشري ج ٢ ص ١٠٩ »

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ » .

ويذكر ذلك في موضع آخر مصوراً تعنتهم في إنكار النبوة فيقول :
 « وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ، إِلَّا أَنْ قَالُوا ، أُبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ؟ »

ويرد عليهم القرآن معللاً الأمر بتعليل آخر غير السابق فيقول :
 « قُلْ : لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا » .

وهذا التعليل في غاية العمق . فإنه ينطوي على سبب من أهم أسباب إرسال الرسل ، فالملائكة ليسوا - بطبيعتهم - في حاجة إلى من يهديهم من الناحية الأخلاقية : إنهم ملائكة .

ويتعمد القرآن أن يصفهم بأنهم « يمشون مطمئنين » فيثبت بذلك توضيح طبيعتهم الملائكية في أذهاننا ، ومع ذلك يقول ؟
 « لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا » .

لم ؟ .. إنهم ملائكة . وهم يمشون مطمئنين فما حاجتهم إلى الرسالة ؟
 الواقع أن مهمة الرسول الأولى ليست الأخلاق ، وإنما هي معرفة الله والملائك الأعلى وما وراء الطبيعة ، وذلك لا يتأتى في صحة لا يشوبها خطأ بمنطق عقلي أو قياس نظري ، وإنما يتأتى عن الله بواسطة سفرائه إلى عباده ، وهم الرسل .

والملائكة كالبشر : عاجزون عن معرفة الله إلا به . ولقد قالوا ، كما حكى القرآن عنهم في سورة البقرة : ٣٢ : « سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا » .

أما الأخلاق فإنها في المرتبة الثانية بعد معرفة الله .

وأرجفوا : بأن محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، يستمد القرآن من شخص معين ، فرد عليهم القرآن في قوة :

« لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » .

ولما استيأس العرب من الجدل المنطقي تقمصوا عقلية الصبيان :

« وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ - كَمَا زَعَمَتْ - عَلَيْنَا كِسَافًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِهَةَ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ ، أَوْ تَرْفَعِ فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ » .

فيجيبهم القرآن في سهولة قوية ، لاذعة ، جادة ساخرة :

« قُلْ : سُبْحَانَ رَبِّيَ ! هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ »

ويثور العرب ، حينما يرون منطقهم ينهار فينادون :

« يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ، إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ

إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ؟ »

ويرد عليهم القرآن مبيناً لهم ما قد خفي عنهم .

« مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَنْ مُنْظَرِينَ » .

ويصور القرآن في النهاية موقفهم الحقيقي الذي لا يخرج عن أن يكون

عاداً لا شائبة فيه لطلب الحق ولا للرغبة في الهدى فيقول :

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ

أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » ^(١) .

« وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ» .

فلما أخذتهم الحجة من جميع أقطارهم ، ورأوا أنهم أضعف من أن يغلبوا بالمنطق ، أعرضوا وقالوا :

« قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمَنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ، فَأَعْمَلْنَا مَا عَمِلُوا »^(١) .

فيذكرهم القرآن بموقف الأمم قبلهم ، وينذرهم بعذاب : كما هي سنته مع هذا النوع من المعاندين :

« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » .

حقاً لقد كانت خصومة العرب للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عنيفة ، قوية ، ولقد صورها القرآن في قوتها وفي عنفها ، ولم يَأْبَ أن يذكر ما فاهت به العرب مما يسيء الرسول ، فذكر وصفهم له بالجنون ، وبالشعر ، وإنه ساحر أو مسحور ، وبأنه ليس من عظماء القريرتين^(٢) ، وبأنه يأخذ القرآن من غيره ، أو بأن القرآن ليس إلا سحراً ، أو أساطير الأولين، اكتبها ، فهي تملئ عليه بكرة وأصيلاً .

ذكر القرآن كل ذلك ، وصور الخصومة في عنفوانها عارضاً أدلة الجاحدين ، ذلك أن القرآن هداية الله ، وهدايته ، سبحانه وتعالى : هي الحق الذي يقذف على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

◦ وجود الله :

لقد كان من الطبيعي - بعد أن ثبتت النبوة أن يتلقى العرب كل ما جاء

(١) فصلت - آية : ٥ .

(٢) مكة والطائف .

في القرآن بالقبول ولكن القرآن لم يكن يلقي القول على علاته ، وإنما يأتي بالقضية مبرهناً عليها بالدليل تلو الدليل ، فيرضى العقل ويطمئن النفس ، ويقود الضمير إلى الإذعان ، وبرغم أن وجود الله أوضح من أن يبرهن عليه فقد وجد في كل الأزمنة من جحدوا كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبداً^(١) .

وما من شك في أن مسألة إثبات وجود الله لم تكن في يوم من الأيام هدفاً من أهداف القرآن ، ولم تكن في يوم من الأيام هدفاً من أهداف الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أو أحد أصحابه وذلك ، أن الإيمان بوجود الله مسألة فطرية وبدهية .

ونحن هنا نسير على أنه يمكن أن يؤخذ من القرآن أدلة على وجود الله وإن لم يكن ذلك هدفاً من الأهداف القرآنية ، وإذا نسقنا الأدلة أو نظمناها فإنما يرجع ذلك إلى استنتاج من نصوص هدفها الصحيح بيان عظمة الله وتديبه وقدرته وهيمته على كل ما في العالم من صغيرة وكبيرة وبيان عناية الله ورعايته وإحكامه المحكم وإبداعه المتقن لكل ما يسرى في العالم من قوانين ونواميس .

إن القرآن يمكن أن يُؤخذ منه الرد على من انحرفت فطرتهم فيقال : إنه يرد عليهم أولاً بضروريات فكرية ، فيثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق :

« أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ »

« وَمِنْ آيَاتِهِ : أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » .

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

ويؤكد هذا بمبادئ مقررة ، يعترف بها كل إنسان ، عندما يفكر فيها تفكيراً بسيطاً : إنه من البين أن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة ولا يمكن من جانب آخر أن يكون علة صياغة : نفسه : « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » .. ؟

ولا يقتصر القرآن على ذلك : بل ورد في غير ما موضع ، وفي غير ما سورة ذلك الدليل الذي يطلق عليه أحياناً ، دليل العناية ، وأحياناً أخرى ، دليل النظام أو القصد أو التدبير ، أو الغائية ، وهذا الدليل هو الذي يستند إلى ما تراه في العالم من تناسق ، وتضامن ، وانسجام ، ومن تدبير محكم ، وعناية تامة بكل صغيرة وكبيرة ، وترابط لا انفصام له بين أجزاء العالم وأجزاء وحداته أيضاً .

وقد استخدم القدماء هذا الدليل ، ولا يزال المحدثون يستخدمونه ، ويعتبره بعضهم أوضح الأدلة على وجود الله ، بل وأقواها ، وهو في الوقت نفسه ، أسهلها بالنسبة للإدراك الإنساني .

قال الله تعالى :

« وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَوَّاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » .

« اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ » .

« هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً » .

« وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » .

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا » .

« أَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا . وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا . وَجَعَلْنَا

نَوْمَكُمْ سُبَاتًا . وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا . وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا

سِدَادًا . وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا . وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ، لِنُخْرِجَ

بِهِ حَبًا وَنَبَاتًا ، وَجَنَّتِ الْأَفَّا قُ ؟ » .

وإذا تصفحت القرآن تبينت مصداق قوله تعالى :
« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » .

وكثيراً من آى القرآن ما يجمع بين دليل الخلق ودليل العناية :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْقُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَضْرِيْفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (١) .

وتوجد آيات متتالية فى سورة الروم ، تجمع بين الدليلين - الخلق

والعناية - وهى قوله تعالى :

« يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » (٢) .

هذه الأدلة تكاد تتضمن كل ما عداها من أدلة ، قديمة كانت أو حديثة

(١) سورة البقرة - آية : ١٦٤ .

(٢) سورة الروم - الآيات : ١٩ - ٢٥ .

يرغم اختلاف أساليب التعبير ، بحسب اختلاف البيئة أو الزمن :
 إنها تتضمنها في صورتها السهلة : « والأثر يدل على المؤثر » .
 وتتضمنها في صورتها الكلامية ، وكل حادث لابد له من محدث .
 وتتضمنها في صورتها الفلسفية القديمة : الممكن والواجب .
 وتتضمنها في صورتها الفلسفية الحديثة ، سواء رجعنا فيها إلى شعور الوجدان
 أو فكرة الكمال أو غير ذلك .

• الوجدانية :

وإذا كان القرآن لا يجعل من أهدافه إثبات وجود الله ، فإنه يجعل من
 أهدافه الكبرى إثبات التوحيد ، والإسلام هو دين التوحيد ، والله سبحانه
 وتعالى ، واحد لا شريك له .

ويستدل القرآن بالمشاهدة الصادقة : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » .
 هذه المشاهدة العادية ، تلبس صورة منطقية رائعة ، فلو كان هناك
 إله غير الله إذن : لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض .
 على أن القرآن لا يكتفى بالمشاهدة وبالمنطق ، وإنما يرجع بالإنسان إلى
 وجدانه ويثبت الوحدة عن طريق النظام والعناية والتدبير ، فيقول في آيات
 رائعة :

« قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ .
 أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ
 ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؟ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ؟
 أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي ، وَجَعَلَ
 بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؟ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ؟ . أَمْ مَنْ يُجِيبُ

الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ؟ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ؟ أَلَيْهَ مَعَ
 اللَّهُ؟ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ . أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ
 الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ؟ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهُ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .
 « أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَلَيْهَ
 مَعَ اللَّهُ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (١) .

◦ العلم :

والله سبحانه وتعالى عالم : إنه عالم الغيب والشهادة .
 « اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ
 شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . سِوَاهُ مِنْكُمْ
 مَنْ أَسْرَفَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » (٢) .
 والله تعالى لا يعلم الماضي والحاضر فحسب ، ولكنه يعلم المستقبل
 أيضاً :

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ
 قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنْ دَلَّكَ عَلَى اللَّهِ سَبِيرٌ » (٣) .

وهو يسخر ممن جعلوا لله شركاء ، ويسألهم في سخريه وإنكار :
 « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ، قُلْ : سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ
 أَمْ بَيَّظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ؟ » (٤) .

وفي القرآن آية يرى بعضهم ، أنها تشير إلى العقل الباطن أو اللاشعور :

(١) سورة النمل - الآيات : ٥٩ - ٦٤ .

(٢) سورة الرعد - الآيات : ٨ - ١٠ .

(٣) سورة الحديد - آية : ٢٢ .

(٤) سورة الرعد - آية : ٣٣ .

« وَإِنْ مَجْهَرٌ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » (١) .

والقرآن يرشد إلى أن علمه ليس مقصوراً على ذاته كما يرى أرسطو ،

وليس مقصوراً على الذات والكليات والجزئيات جميعها على الوجه التام :

« يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ : بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ » (٢) .

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ . وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّأُكُمْ بِاللَّيْلِ ، وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِقَاضِي أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » (٣) .

أما دليل القرآن على علم الله ، فهو في غاية الوضوح والقوة :

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » .

• مظاهر صفاته :

الله عالم وهو مرید ، وقادر ، وحكيم ، ومن مظاهر صفاته هذه ، المتضامنة هذا الكون وما حواه من بديع صنعته ، والقرآن يتحدث في استفاضة عن مظاهر هذه الصفات في كثير من السور ، بل لا تكاد تخلو سورة

(١) سورة طه - آية : ٧ .

(٢) سورة سبأ - آيات : ٢ ، ٣ .

(٣) سورة الأنعام - آيات : ٥٩ - ٦٠ .

من هذه المظاهر كلها أو بعضها .

وإليك نموذجاً يحدثك بذلك .

« اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ،
 وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، يُفَصِّلُ
 الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ
 الْحُسْنَىٰ » (١) .

• البعث :

الله سبحانه وتعالى خالق ، وهو واحد ، مريد ، عالم ، قادر .. إلخ .
 وهو أيضاً باعث ، ومسألة البعث ، مسألة أنكروها قوم يطلق عليهم
 الإمام الغزالي : الطبيعيون ، وهم قوم أنكروا البعث مع اعترافهم بالصانع .
 لقد اعترفوا بالصانع لما رأوه في عجائب الطبيعة من تناسق محكم لا
 يمكن أن يكون وليد المصادفة ، ولكنهم رأوا أن النفس تابعة للبدن ، ولذلك
 تفتى بفنائه ، وكانت نتيجة ذلك أن جحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار
 والحساب .

على هؤلاء وأضرابهم ، على اختلاف بيئاتهم وأساليبهم يرد القرآن في
 غير ما موضع .

وطبيعيو العرب لم يكن عندهم في هذه المسألة منطق جدلي فلسفي
 وليس لهم من دليل سوى الإنكار والاستبعاد :

« وَقَالُوا : إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَّانَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » (٢) .

(١) سورة الرعد - الآيات : ٢ - ١٧ .

(٢) سورة الإسراء - آية : ٤٩ .

« قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » (١).

والقرآن يرد عليهم بتذكيرهم بمظاهر قدرة الله السائدة في الكون ، وبأنه ليس من العدالة الإلهية أن يترك الإنسان سدى فلا يجازى على ما قدم :
 « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . ؟ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَى ؟
 ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ، أَلَيْسَ
 ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ » .

وفي القرآن كثير من الآيات ترد عليهم مستندة إلى مظاهر قدرة الله وعدالته . وفيه آيات متتالية في آخر سورة يس تحدثت عن رأى منكرى البعث . ثم ردت عليهم ردوداً متنوعة مختلفة واضحة قوية ، ونحن نذكر هذه الآيات ، ونذكر تفسير الكندي لها نقلاً عن كتاب الكندي للأستاذ أبو ريذة :

« قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » .

قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ . أَوَلَيْسَ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ
 الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي
 بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٢).

ويقول الأستاذ أبو ريذة ، عن تفسير الكندي لهذه الآيات :

إن « فيه يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة ، ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرى ، وهي :

(١) سورة يس - آية : ٧٩ .

(٢) سورة يس - الآيات : ٧٨ - ٨٣ .

١ - وجود الشيء من جديد ، بعد كونه وتحلله السابقين : ممكن .
بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة ، لا سيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاد
وإبداعه عن عدم ، وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل وثيء هو
أصعب - هذا الدليل موجود في الآيات في كلمات قليلة :

« قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

٢ - ظهور الشيء من نقيضه ، كظهور النار من الشجر الأخضر
ممكن وواقع تحت الحس . وإذن يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل
الهامد مرة أخرى .

وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر ، وهو :

أن الشيء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق - هذا
الدليل موجود في آية :

« الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً ، فَإِذَا أُنْتَمِ مِنْهُ تَوَفِدُونَ » .
وقد انتفع به الأشعري في إثبات إمكان البعث .

٣ - خلق الإنسان أو إحيائه بعد الموت ، أيسر من خلق العالم الأكبر
بعد أن لم يكن ، وهذا هو مضمون آية :

« أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ! ؟
بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » .

٤ - الخلق ، والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق ، لا يحتاج من جانب
الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان ، خلافاً لفعل البشر الذي لا يتم إلا في
زمان ، ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل ، وهذا هو معنى آية :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

وهذه الآية ، في رأى الكندي ، إجابة عما في قلوب الكفار من النكير

بسبب ظنهم أن الفعل الإلهي المتجلى في خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته ، قياساً منهم لفعل الله على فعل البشر .

لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلى مدة زمنية أطول ، فجاءت الآية حاسمة في بيان نوع الفعل الإلهي ، وأنه إبداع بالإرادة الخالقة والقدرة المطلقة ، لا يحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زمني .

« فأى بشر - كما يقول الكندي - يقدر بفلسفة البشر أن يجمع في قول يقدر حروف هذه الآيات ، ما جمع الله ، جل وتعالى ، إلى رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، فيها من إيضاح ، أن العظام تحيا بعد أن تصير رمياً ؟ وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض ؟ وأن الشيء يكون نقيضه ! ! كلت عن ذلك الألسن المنطقية المتحايلة ، وقصرت عن مثله نهايات البشر ، وحجبت عنه العقول الجزئية » هـ .

على أننا لا نترك موضوع البعث دون أن نوجه ذهن القارئ إلى هذا التنظير البديع الذي ذكره القرآن الكريم ، بين الأرض والموات التي يحييها الله فتنبت من كل زوج بهيج ، والعظام والرفات التي يحييها الله ويصورها فيحسن تصويرها :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ، ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ، لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ، وَرَبَتْ ، وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ .. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ

يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَأِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ،
وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ .

• مشاهد القيامة :

ويسبق البعث ويعقبه أمور تحدث عنها القرآن في كثير من الآيات
ووصفها في روعة أخاذة :

إنها تصف يوم القيامة ، وتتحدث عن الحساب والميزان ، وتصف حالة
المؤمنين والكافرين ، وتصور النار في صورتها البشعة الكريهة والجنة في
روحها وريحانها وصورها ورياضها الفيحاء ، وسنكتفي من كل ذلك بآيات
من آخر سورة الزمر :

يقول الله تعالى :

« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ يَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ
مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ
فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ ، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ
وَالشُّهَدَاءِ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَاعْمَلَتْ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ قَالُوا : بَلَىٰ . وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ
عَلَىٰ الْكَافِرِينَ . قِيلَ : ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ . وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْزَنَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ،
 فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ
 بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ .

﴿ اِفْتَلِ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

إلى النصر يا ذن الله

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١)

أخرج أبو حاتم ، وابن مردويه ، عن جابر رضى الله عنه قال :

نزلت هذه الآية الكريمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في المسجد ، فكثرت الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرف ردايه على عاتقه ، فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية ؟

قال : نعم ، فقال الأنصارى : بيع ربيع ، لا ثقيل ولا نستقبل .

وقد فرح المسلمون بهذه الآية حينما نزلت فرحاً كبيراً ، وذلك أنها بينت لهم في صورة من اليقين أن الجهاد جزاؤه الجنة ، وهو جزاؤه الجنة سواء أكانت نتيجة النصر أم كانت نتيجة الاستشهاد .

— إن الجهاد على أى وضع كانت نتيجته ، ثم الجنة . ورسول الله صلى

(١) سورة التوبة - آية : ١١١ .

الله عليه وسلم يقول :

« الجنة تحت ظلال السيوف » .

ولقد صور الله سبحانه وتعالى جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم ، وأنفسهم فيه ، وإثابة الله لهم على ذلك بالجنة ، لقد صور الله ذلك بالبيع والشراء .

والمعقود عليه هو الجهاد ، والثمن هو الجنة ، والبائع هو المجاهد ، والمشتري هو الله سبحانه ، ومكان البيع هو ميدان المعركة ، وتسجيل العقد في عدة جهات موثوق بها هي الكتب السماوية .

والربح مؤكد على أية حال كانت نتيجة الجهاد ، لأنه سبحانه لم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ونصر دينه^(١) .

أما المؤمنون الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فقد ذكر الله صفاتهم وعددها واحدة واحدة : فهم الثابون .

وأول ما ذكر الله من الصفات الصفة التي لا يتأق للمؤمن أن يستقيم في صلته بالله إلا بها وهي صفة التوبة فهم الثابون ، والتوبة صفة يحبها الله سبحانه وتعالى : يقول سبحانه :

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ » .

والله يفرح بها .. يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن » .

وهم العابدون : إنهم عابدون بجهادهم ، وهم عابدون بعملهم ، وهم عابدون بأقوالهم ، لقد صيروا حياتهم في كفاحها وفي نضالها وفي قولها وصرمتها

(١) انظر تفسير الكشاف في ذلك .

وفي حركتها وسكونها ، إلى عبادة ، فتحققوا بقوله تعالى :
 « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

وهم الحامدون لله في السراء والضراء ، في العسر واليسر ، في الرخاء
 والشدة : لأنهم يعلمون أن حكمة الله فوق كل حكمة ، وتصريفه أحكم
 تصريف .

وهم السائحون ، أى يطرقون كل الوسائل في سبيل الرق الذاتى :
 بالسياحة في مجال المعرفة ، والسياحة في مجال العلم ، والسياحة في مجال
 العبادة ، وشعارهم أن من استوى يومه فهو مغبون ، ومن لم يكن إلى زيادة
 فهو إلى نقصان ، فالسياحة هى الضرب في جميع المجالات تقرباً من
 الكمال الذى يحبه الله للمؤمن .

وهم الراكعون الساجدون . أى المصلون في خشوع وخضوع .
 وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، بعد أن ائتمروا بالمعروف
 واتهوا عن المنكر فى أنفسهم ، وذلك ما عبر الله عنه ، سبحانه بقوله :
 « وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ » .

وبعد : فإن الآية الكريمة تنتهى بقوله تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .
 والتبشير هنا للمؤمنين الصادقين علم مطلق ، بشرهم بالفوز ، بشرهم
 بالأمن ، وبشرهم بالسعادة ، وبشرهم بالنصر .

القرآن يرسم طريق النصر

ونعود إلى الآية الكريمة من جديد .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » (١).

إن هذا العهد والتعاقد ، بين الله والمؤمنين ، إنما هو عهد الإيمان ، يبيع فيه المؤمن نفسه وماله ، يقدمهما إلى الله فلا يبخل بالمال في سبيله سبحانه ، ولا يبخل بالنفس حينما تقتضى الظروف البذل والتضحية والفدائية .

والإيمان إذن - ومن شرائطه الجود بالمال والنفس - هو أول خطوة أساسية جوهرية في طريق النصر - بل هو خطوة بدونها لا يكون هناك قط أساس مستقيم ، تعتمد عليه الأمم ، ويعتمد عليه القادة في سبيل اتخاذ مكان كريم بين الدول .

على أن القرآن لا يعد المؤمن مؤمناً صادقاً إلا إذا كان مجاهداً بماله وبنفسه في سبيل الله .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » (٢).

أما إذا كان الإيمان ضعيفاً مزعزعاً متارجحاً فإن نتيجة ذلك تكون تباطؤاً عن الخروج إلى الجهاد ، بل تخلفاً عنه .

« لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ، إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) التوبة - آية : ١١١ .

(٢) الحجرات - آية : ١٥ .

الْآخِرِ ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ^(١) .
بل إن وجود العناصر التي لا يملأ الإيمان أفئدتها في صفوف المجاهدين

تضر بقضيتهم .
« لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ، وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ ، يَبْغُونَكُمُ
الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ » ^(٢) .

وضعاء الإيمان ، ومن لا إيمان عندهم يستخفون حين يبدأ النضال
ويتخلفون عن الجهاد فرحين بذلك .

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » ^(٣) .

ويأمر القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يعزل هذه العناصر عن
معسكر المؤمنين وألا يأذن لهم بالمشاركة في الجهاد .

« فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُواكَ لِلْخُرُوجِ ، فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا
مَعِيَ أَبَدًا ، وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ،
فَاعْقُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ » .

هذا الإيمان إنما هو إيجابي : يستعد ويهيئ للأمر عدته ولا يدع صغيرة
ولا كبيرة من أمر التعبئة للجهاد إلا ويحكمها ، ومن هنا كانت الخطوة

الثانية في طريق النصر ممثلة في قوله تعالى :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » .

(١) التوبة - آيتا ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) التوبة - آية : ٤٧ .

(٣) التوبة - آية : ٨٣ .

وهذه القوة لا تقتصر على القوة المادية ، وإنما تتضمنها وتتسع دائرتها فتشمل التعبئة الروحية .

وما لا شك فيه أن التعبئة الروحية هي قوة دافعة نحو الثبات في لقاء العدو والإقدام في شجاعة نحو تحقيق النصر .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ^(١)

والتعبئة الروحية إنما تثبت دعائمها وتوثق ثمارها حينما يكون الهدف من الجهاد واضحاً سافراً .

ومن هنا كانت الخطوة الثالثة التي رسمها القرآن في طريق النصر ، وهي وضوح الهدف ، والهدف القرآني من الجهاد ، ولا بأس من ذكره مرة ثانية - ليس عرضاً مادياً أو حظاً دنيوياً ، وما كانت هجرة المجاهد لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، إنما هجرته إلى الله ورسوله ، ومعنى ذلك : أن هدف الجهاد ، إنما هو إعلاء كلمة الله .

وكلمة الله هي الحق . وهي العدالة وهي الرحمة . وهي الأخوة ، وهي السلام العالمي ، بالنسبة للفرد في نفسه ، ودمه وماله وعرضه ، أو بالنسبة للأمة في كرامتها وعزتها ، وكل مقدماتها .

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٢)

والتعبئة الروحية كفيّلة بأن تجعل الأمة في جهادها كالبيان المرصوص .

ومن هنا كانت الخطوة الرابعة التي رسمها القرآن في سبيل النصر .

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْتَانٌ مَرْصُوعٌ » ^(٣)

(٢) النساء - آية - ٧٦ .

(١) الأنفال - آية : ٤٥ .

(٣) الصف - آية : ٤ .

« وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (١) .
 « وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » (٢) .

فإذا ما وسوس الشيطان بتزاع أو خلاف ، وإذا ما تحدثت النفس بفرقة وشقاق ، فإن طريقة تسوية ذلك مرسومة واضحة :

« فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » (٣) .

إن الأمة التي تنصر الله باتباعها للمدين الخالص ، قد ضمن الله لها النصر ووعداها به ، ووعد الله لا يتخلف .

« إِن تَنَصَّرُوا إِلَى اللَّهِ يُنَصِّرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (٤) .
 « وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » (٥) .

أما الموقف الأخير فهو التفويض لله سبحانه ، والثقة فيه وحده والاعتماد عليه لا على النفس أو القوة المادية ، أو أى شيء آخر ، وقد أعطى الله المسلمين درساً قاسياً حينما اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم ، وعلى تفوقهم وعدتهم وعنادهم وقالوا :

« لَن نَغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قَلَةٍ » .

كان ذلك في غزوة حنين ، ولقد صور الله الموقف تصويراً قوياً فقال سبحانه :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ، إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوتُكُمْ ،

(١) الأنفال - آية : ٤٦ .

(٢) آل عمران - آية : ١٠٢ .

(٣) النساء - آية : ٥٩ .

(٤) - محمد - آية : ٧ .

(٥) الحج - آية : ٤٠ .

فَلَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَيْتُمْ مُدْبِرِينَ ،
ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ،
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« سنتنصر »

خلاصة وإيضاح لعدة زوايا

سنتنصر بإذن الله ، ولقد بين الله سبحانه لنا عوامل النصر وسائله ،
فقال سبحانه في صورة شاملة :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ،
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الصَّابِرِينَ » (١) .

إن الله سبحانه وتعالى يخاطب بذلك المؤمنين الذين وجدت نفوسهم حلاوة
الإيمان ، فكان الله ورسوله أحب إليهم من كل شيء : من المال والولد
والنفس والنفيس ... إنه سبحانه يخاطب المؤمنين الصادقين الذين وصفهم
في تأكيد دقيق بقوله :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .
وأول عامل من عوامل النصر إذن إنما هو الإيمان . الإيمان الذي باع
الإنسان فيه نفسه وماله لله سبحانه بثمن هو الجنة :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » .

أما العامل الثاني ، الذي بينه الله سبحانه في الآية : فهو الثبات : الثبات في كل ما يتصل بالإيمان ، وما يتصل بالجهاد ، الثبات في الإعداد المادى ، والثبات في لقاء العدو ، والثبات في الإعداد الروحى ، والثبات على وجه العموم في التعبئة بجميع ألوانها ، روحية إيمانية ، أو مادية حربية . أما العامل الثالث فهو : ذكر الله ، ولم يأمر الله بالذكر دون وصف له ، وإنما وصفه بالكثرة قائلاً :

« وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدوة حسنة في هذا ، لقد كان يعبئ التعبئة الكاملة دون أن يترك شيئاً صغيراً كان أو كبيراً للمصادفة ، أو للحظ ، ثم يلجأ إلى الله بالدعاء ، والذكر ، من ذلك مثلاً : قوله صلى الله عليه وسلم .

« اللهم منزل الكتاب ، وجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم ... » .

أما العامل الرابع : فهو طاعة الله ورسوله : طاعتهما فيما أمرا من مسائل الجهاد وغيره ، وبما أمرا به في مسائل الجهاد إعداد القوة بأقصى ما يمكن من طاقة . يقول تعالى :

« وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » .

ومن أوامر الله العامة الشاملة ، التقوى ، ولقد وعد الله المتقين بالإخراج

من كل حرج أو ضيق :

« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » .

أما العامل الخامس : فهو عدم النزاع لأنه سبب الفشل ، ولا تنازعا
فتفشلوا وتذهب ربحكم ، أى قوتكم وغلبتكم ...
والعامل الأخير الذى ختم الله به عوامل النصر ، هو الصبر : الصبر فى
اللقاء ، والصبر على طاعة الله ، والصبر على مخالفة الهوى والشهوات
والتزعات الشيطانية ، فإذا ما حققنا ذلك كان الله معنا ...
« إن الله مع الصابرين » .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حسبما رواه ابن أبى حاتم :
« من أحب أن يكون أقوى الناس ، فليتوكل على الله ، ومن أحب أن
يكون أغنى الناس ، فليكن بما فى يد الله عز وجل أوثق منه بما فى يديه ،
ومن أحب أن يكون أكرم الناس ، فليتنق الله عز وجل » .
وتوكل المؤمنون على الله سبحانه ، شعار لهم ملازم ، وصفة من صفاتهم ،
لا تفارقهم :

إنهم متوكلون عليه مع إحكام جميع أمورهم ، وإتقان جميع مشونهم ،
ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل عال من أمثلة ذلك :
لقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يحكم أمره إحكاماً غير منقوص ،
وهو من قبل الشروع فى إحكام العمل متوكل على الله ، وفى أثناء القيام
بإحكام العمل متوكل على الله ، وبعد الانتهاء من إحكام العمل متوكل
على الله .

ها هو ذا صلى الله عليه وسلم فى بدر يعبئ الصفوف ليلاً . ويذهب
إلى أصحاب النبل فيوصيهم بالطريق الأمثل ، ويمر بالقبائل ، فيرشد كل
قبيلة إلى شعارها ، وينظر فى الأمر من قريب ومن بعيد ، ويأمر الجيش
كله أمراً حاسماً ، ألا يحملوا على العدو حتى يأمرهم . فلما تم له من الإعداد

والتهيئة ما أحب استقبل القبلة والتجأ إلى الله متضرعاً مستنجداً خاشعاً :
اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل
الإسلام ، فلا تعبد بعد في الأرض أبداً .

واستمر يستغيث بربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر رضي
الله عنه ، فأخذ رداه فرده ، وأخذ يقول : يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك ،
فإنه سينجز لك ما وعدك .

وبعد : فهذا هو التوكل الإسلامي ، إنه إعداد ، وكفاح ، وجهاد ،
واستناد إلى الله في الصغير من الأمور والكبير منها :
« ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .

أما فيما يتعلق بالدعاء خاصة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان
يدعه في الحروب وما كان يدعه في غير الحروب . ولقد رويت في الحرب
أدعية هي على وجه العموم داخلة في الأدعية التي يتجه فيها الإنسان إلى
الله طالباً كشف الكرب ورفع المقت .

يقول الإمام النووي في كتاب الأذكار بالنسبة للمقاتلين :
ويستحب استحباباً مؤكداً أن يقرأ ما تيسر له من القرآن وأن يقول
في دعاء الكرب وهو في الصحيحين :

« لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله
إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم .
ويقول :

حصنتنا كلنا أجمعين بالحى القيوم الذى لا يموت أبداً ، ودفعت عنا
السوء بلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

خاتمة

« قوانين ثابتة من القرآن الكريم :

لقد تحدث القرآن عن القوانين التي إذا راعاها الإنسان باعتباره فرداً ، وعمل على تحقيقها ، في جانب الخير ، وعلى اجتنابها إذا كانت تعبر عن مجال اجتناب الشر ، فإنه يسعد لا محالة ، ولقد ضمن الله سبحانه وتعالى ذلك .

وذكر الله سبحانه وتعالى ، في القرآن الكريم ، القوانين للمجتمع ، حتى إذا اتبعها كان مجتمعاً صالحاً ، عزيزاً بعزة الله ، منصوراً بنصر الله . ونذكر هنا بعض هذه القوانين ، نذكرها بألفاظها ، ونذكرها متناثرة ، دون ترتيب معين ، والقرآن مليء بشرح قوانين السعادة للفرد وللمجتمع ، وما على الإنسان إلا أن يتدبرها في كتاب الله الذي يهدي للتي هي أقوم .

« من قوانين الخلافة في الأرض :

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » .

« من قوانين سعة الرزق :

« اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ

بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ ، وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا .
 « يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا
 وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ » .

◦ من قوانين التيسير :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ... فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى » .

◦ من قوانين التعسير :

« وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى » .

◦ من قوانين الفرج :

« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ
 يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » .

◦ من قوانين السعادة :

« مَنْ عَمَلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً
 وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا
 وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

« من قوانين الهداية والبشرى :

« وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ... لَهُمُ الْبُشْرَى
فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ
وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

« من قوانين سوء الخاتمة :

« فَأَمَّا مَنْ طَغَى، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى » .
« إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ... فَلَهُمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » .

« من قوانين حسن الخاتمة :

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ... فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
الْمَأْوَى » .
« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ » .

« من قوانين النصر :

« إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .
« وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي
الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

وبعد :

فإننا هنا إنما ذكرنا نماذج مما يجب أن يتدبره المؤمنون في القرآن الكريم ،
ليكتفوا لأنفسهم ، بتوفيق الله ، حياة عزيزة سعيدة .

وشهر القرآن هو أنسب زمن للابتداء في الاتجاه إلى الله ، أو في تقوية
الاتجاه إليه ، وذلك بتدبر القرآن الكريم ، واتباع ما فيه .

ونختم الكتاب كله بقوله تعالى :

« وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ،
وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

ويقوله تعالى :

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ » .

والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة والسلام على أكرم خلقه وأحبهم إليه ،
الذى كان القرآن خلقه ، والذى وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله :

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ » .

فهرس

الصفحة

٥	مقدمة
	الفصل الأول :
٩	« اقرأ باسم ربك »
٩	المنهج القرآنى لحياة المسلم
١٠	هذه الليلة المباركة
١١	« اقرأ »
١٣	العلم فى الإسلام
١٦	« باسم ربك »
١٨	لماذا لفظ « ربك »
١٩	« الذى خلق »
٢٠	تلخيص ما سبق

الفصل الثانى :

	« اقرأ باسم ربك » توجيهاتها بالنسبة
٢١	للغزو الفكرى والثقافات الأجنبية

الفصل الثالث :

٣٩	« اقرأ باسم ربك » نزلت فى ليلة القدر
----	--------------------------------------

الفصل الرابع :

٤٣	« اقرأ باسم ربك » بداية الوحي وأول آية نزلت
----	---

الصفحة

٤٣	وصف القرآن
٦٢	التدبر في القرآن

الفصل الخامس :

٧١	« اقرأ باسم ربك » كيف ؟
٨٦	التوحيد والشجاعة الأدبية .

الفصل السادس :

٩٣	« اقرأ باسم ربك » في الذكر
٩٧	القرآن حزينهم
١٠٣	التهليل
١٠٤	التسييح والتحميد والتكبير والحوقة

الفصل السابع :

١٠٩	« اقرأ باسم ربك » في الدعاء
١١٥	شهر رمضان والدعاء
١١٩	من الدعاء في القرآن
١٢٧	فضل الدعاء
١٣١	القضاء والدعاء
١٣٣	ثمرة الدعاء .
١٣٣	استجابة الدعاء
١٣٤	الدعاء في الرخاء
١٣٥	أوقات الدعاء وأماكنه
١٣٧	من جوامع الدعاء

الفصل الثامن :

١٣٩	« اقرأ باسم ربك » أسس العقيدة الإسلامية
١٣٩	إثبات الرسالة
١٤٢	معارضة العرب
١٤٦	وجود الله
١٥٠	الوحدانية
١٥١	العلم
١٥٢	مظاهر صفاته
١٥٣	البعث
١٥٧	مشاهد القيامة

الفصل التاسع :

١٥٩	« اقرأ باسم ربك » إلى النصر بإذن الله
١٦٢	القرآن يرسم طريق النصر
١٦٦	سنتنصر

١٧٠ خاتمة :

١٧٠	قوانين ثابتة من القرآن الكريم
١٧٤	الفهرس